رسائل الأحزان
فى
فلسفة الجمال والحب

بقلم

مصطفى صادق الرافعى

تحقيق ومراجعة

عبد الله المنشاوى

مكتبة الايمان

المنصورة - أمام جامعة الأزهر

ت ٣٥٧٨٨٢

الطبعة الأولى
١٤١٨ هـ ـ ١٩٩٧م

مكتبة الإيمان للنشر والتوزيع
المنصورة ـ أمام جامعة الأزهر
تليفون: ٣٥٧٨٨٢

تقديم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونستهديه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله .

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾ [النساء: ١] .

وبعـــــد :

فمما لانشك فيه جميعا أن اللغة العربية لغة معبرة على كثير من الألفاظ والمعانى التى تدور فى الأذهان بصورة دقيقة .

والقارئ فى كتب الرافعى يشعر بلذة شيقة بسبب أسلوب الرافعى الشيق الذى يترك بصمات واضحة فى ذهن القارئ لما يحتويه من قصص ممتازة .

وبذلك نقول بحق أن الرافعى هو أحد الكتاب القلائل فى عصره الذى كتب لنا كتبا أدبية نادرة فى أسلوبها وأفكارها، فرحمة الله عليه وعلى كل من خدم اللغة جميعا .

نبذة عن المؤلف:

هو الأديب مصطفى صادق الرافعى المولود فى قرية بهتيم بمحافظة القليوبية سنة ١٨٨٠م وعاش فى طنطا إلى أن توفاه الله فى مايو سنة ١٩٣٧م .

وكانت حياته كلها كفاحا متواصلا فى الأدب والوطنية وخاض كثيرا من المعارك الأدبية مع أقرانه كطه حسن والعقاد وغيرهما .

مؤلفاته :

له مؤلفات غير هذا المؤلف منها :

١ ـ تحت راية القرآن .

٢ ـ إعجاز القرآن والبلاغة النبوية .

٣ ـ تاريخ آداب العرب

وغيرها .

عملى فى الكتاب :

١ ـ مراجعة الكتاب وضبطه لغويا .

٢ ـ تخريج الآيات والأحاديث إن وجدت .

٣ ـ شرح بعض الكلمات الغريبة التى لم يتطرق لها المؤلف مسبوقة بكلمة قلت حتى تتميز عن كلام المؤلف . رحمه الله .

وأخيرا أدعو الله أن يكون هذا العمل فى ميزان حسناتى يوم القيامة . . اللهم آمين . وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

عبد الله المنشاوى

بِسْمِ اللهِ الرَّحمنُ الرَّحيم

مقدمة

كان لى صديقٌ خَلَطْتُهُ بنفسى زمناً طويلاً وكنت أعرفه معرفة الرأي كأن شيء في عقلي، ومعرفةَ القلب كأنه شيء في دمي. ثم وَقَعَ فيما شاء الله من أمور دنياه حتى نسيني، وطار على وجهه حتى غاب عن بصري، والتفّت عليه مذاهبه فما يقع إليَّ من ناحيته خبَر؛ وامتد بيني وبينه حولٌ كامل خلا من شخصه وامتلأ من الفكر فيه، كأنه العامُ الأول من تاريخ حفرة بين القبور التى لا تُنسى.

وطلعت الشمس يوماً فى غيم[1] يناير من سنة ١٩٢٤ فأحسستُ قلبى من الذُّعر كالطائر يَنقُضُ ندى جناحيه فى أشعتها، ولم تكد ترتفع وتتلألأ حتى وافى البريد يحمل إليَّ خطه وإذا فيه:

ياعزيزى الحبيب!

فقدتنى زمناً إن يكن فى قلبك منه وخزة[2] ففى قلبى منه كحزِّ السيفِ؛ لم أنسك نسيان الجحود وإن كنتُ لم أذكرك ذكرى الوفاء فأبعث إليك بخبرٍ يترجم عنى، إذا كنتُ فى سجن وأنا الساعةَ منطلق منه. لاتجزع ولا تحسبنهً سجن الحكومة... إن هو إلا سجن عينين ذابلتين كأن قلبى المسكين يتمرَّغ فى أشعة ألحاظهما كما يكون المقضيُّ عليه إذا أحاطت به السيوفُ وجعل بَريقها يتخاطف معانى الحياة من روحه قبل أن يخطف هذه الروح.

بل سجنُ فكرى الذى ابتليتُ به وبخياله معاً فلا يزال واحد منهما يبالغ فى إدراك الجمال والآخر يبالغ فى تقديره حتى تكاد تطلعُ نفسى من نواحيها[3] لكثرة ما يسرفان عليهما كما يريد الأطفال أن يملأوا القدحَ ليستفيض لا ليمتلئ، وليرسل الماء لا ليُمسكه؛ فلو أنهم صبُّوا فيه ملء بحر بأمواجه لجرى البحر من حافة قدح صغير.

ما أحسبنى قطُّ رأيت امرأة جميلة كما هى فى نفسها وتركتها كما هى فى نفسها بل هناك نفسى. وآه من نفسى. وما أسرع ما يمتزج فى هذه النفس بعض

(١) الغيم: السحاب كما فى القاموس. (٢) قلت: الوخز: الطعن بالرمح وغيره كما فى القاموس.
(٣) إذا امتلأ الشيء إلى آخره قيل كاد يطلع من نواحيه

الإنسانية المحبة ببعض الإنسانية المحبوبة فإذا أنا بشيء إلهي قد خرج لي من الإنسانيتين. هو هذا الشعر؛ هو هذا البلاء ،هو هذا الحب.

فررت منك ومن سواك يا عزيزى مُصَيْف [1] إلى امرأة كالتى جعلت آدم يفرُّ حتى من الجنة ومن الملائكة؛ وقد يكون اتصال رجل واحد بامرأة واحدة كافياً أحياناً لتكوين عالَم كامل يسبح فى فَلَك وحده. عالمٍ مسحور، فى فلك مسحور، لا يخضع إلا لجاذبية السحر، ولا يعرف إلا تهاويل السحر.

على أنك لم تفقد مني فى هذه السنة إلا بضعة كُتُب وكلاماً كنا نترسَّل به وليس فيه إلا الحبر؛ فسأردُّ عليك من ذلك كُتُبُ سنوات وأعوضك برسائلى كلاماً فيه دمعُ العين ودمُ القلب. فقدتنى صديقاً يهزُّ يديك بتحيته والآن أعود إليك شاعراً يهز قلبك بأنينه. فقدتنى شخصاً وسأرجع إليك كتاباً.

أما أنت فاكتب لى رَجْعَ كل رسالة تأتيك من قِبَلى واذكر لى موقعها من نفسك وكيف كان دبيبُها أو طيرانها عندك فإنى راميك بأسهُم لا قاصرات عن قلبك تنزل دونه ولا زائدات تمر عليه وتتجاوزه، بل مسدَّدات يقعن فيه.

وأرجو عافاك الله أن لاتتطلع فى قلمى بنقد أو اعتراض أو تعقيب بل دعنى وما أكتبه كما أكتبه فإن لكل شىء طَرَفَين وإن طرَفى الجمال هما الحب والبغض، ورسائلى هذه ستأتيك بالجمال من طرفيه فلقد والله أحببت حتى أبغضت، ولقد والله يُضْجِر العمل السامى إذا أصاب غير موضعه كما يُضجر العمل السافل إذا نزل فى موضعه.

ومتى انقطع هذا المدَدُ المتلاحق من كتبى فاجمع الرسائل وقدم لها كلمة بقلمك ثم اطبعها وسمها «**رسائل الأحزان**»؛ إنها كانت عواطف ثارت وقتاً ما ليحدُثَ منها تاريخ وسكنت بعد ذلك ليحدث منها شعر وكتابة.

فإن نجتمع بعدُ نظرنا فيها معاً وقرأتها عيناك لقلبى، وإن ارتاح الله لى برحمته [2] رفَّت عليها روحى فأسمع صوتك فى الغيب يرسل إلى هذه الروح تحيةً من أنغام قلبها الميت.

صديقك ....)

٢١ يناير سنة ١٩٢٤

(١) مصيف تصغير «مصطفى» على قاعدة الترخيم وكان الصديق يتحبب إليَّ به.

(٢) كناية عن الموت.

وجعلت رسائل الصديق تترادفُ إليَّ مُسْهَبَةً[١] ضافية تقطر فيها نفسه كما ترسل السحابة المنتشرة قطرات انعقدت وانحلت . ثم جعلت نفسه تنطوى على نأي[٢] حبيبته واشتد عليه أمرها ثم أسْهلَ وانقاد ، واعتادها هاجرة فَراثَ قليلاً[٣] ثم كفَّ ؛ ومرت الظبية تطفُو[٤] ووهبها للبر الواسع . . . وانقلب عنها بعد أن ملأت نفسه كما يقول فى بعض رسائله «بمثل البحر ملحاً ومرارة» . . .

أما هذا الصديق فأعرفه أُسلوباً من الكبْر ولكن على نفسه، ومن الشذوذ ولكن فى نفسه، كأنما فُتحت أفواه عروقه جنيناً وملأتها الوراثة من دم مَلك كان فى أجداده. مستصعبٌ شديدُ المراس فهو أبداً فى حياته كالملك الذى حالت السيوف والأسنة والقوانين بينه وبين تاجه فجعلت له حياتين يفصل الموت بينهما، اجتمع من تاريخه إنسان بلغ الزمن تحت عينيه نيِّفاً وأربعين سنة، فهو تاريخ أحزان قد استفاضت مسائله فى فصول وأبواب جف القلم منها على نيف وأربعين جزءا كلماتها فى حوادثها وإن السطر منها ليُرعدُ فى صحيفته من الغيظ كله وإن الكلمة لتبكى بكاءً يُرى وإن الحرف ليئن أنيناً يُسمع وإن تاريخه كله لينتفض لأنه مصيبة مَلَكية مصورة فى ملك.

***

لقد سبق الكتاب وجفّ القلم الأزلي على علم الله فما أتينا إلى هذه الدنيا إلا ليمثل كلٌّ واحد منا فصلاً من معاني الشقاء الإنساني فى تلك الثياب التى هى مَلْك لصاحب المسرح، لانخلعها ونلبسها بل يخلعنا بعضها ليلبسنا بعضها الآخر. فلسنا نبتدع ولكن يُلقى علينا وما نحن بمخترعين ولكننا نحتذى، والرواية موضوعة تامة قبل ممثليها. وضعها ذلك القلم الأعلى الذى كتب مقادير كل شىء كان أو يكون حتى تمحى من صفحة الأرض هذه الأحرف السوداء المتحركة والساكنة . . . .[٥]

والمشكلة الإنسانية الكبرى أن كل إنسان يريد أن يكون بطل الرواية ومَثَلَها

---

(١) قلت: السهبة : البعيدة القعر، ومسهبة : إذا غلبتك سهبتها حتى لاتقدر على الماء، وأسهب: أكثر الكلام فهو مسهب ومستهب أو طمع حتى لا تنتهى نفسه عن شىء كما فى القاموس .

(٢) قلت: نأى : بُعْد كما فى القاموس . (٣) أي أبطأ؛ وأسهل عاد سهلاً

(٤) تعدو لخفتها عدواًشديداً.

(٥) كناية عند الناس.

البِكْر حتى ذلك الشخص الذى جيء به لتنزل عليه اللعنة فى سِياقها. غير أن الرواية مفصَّلة من قبل، ويأتى فصل اللعنة كما هو بأطرافه وحواشيه وأسبابه ونتائجه فينصبٌ على ممثله جملة واحدة على وجه لايُحَس ولا يُرى ولايدفع كما يلبسه النوم فإذا هو يَقتل فيه قتلاً وإذا رجل على أعين الناس باللعنة حالٌ وباللعنة مرتحل .

النوم والقدرَ والموت كالشيء الواحد أو ثلاثتها أجزاء لشيء واحد ؛ فالنوم غفلة تُخرج الحى هنيهة من الحياة كلها إلى حالة أخرى. والموت غفلة تخرجه من الحياة كلها إلى حالة أخرى. والقدر منزلة بين المنزلتين يقع هيناً على أهل السعادة بأسلوب النوم ويجيء لأهل الشقاء عنيفاً فى أسلوب الموت ، ولن يجلب شيئاً أو يدفع عن نفسه شيئاً من الثلاثة إلاالذى لم يُخلق على الأرض ذلك الذى يستطيع أن يفتح عينيه على الليل والنهار فلا ينام ، أو يحفظ نفسه على الصغر والكبر فلا يموت ، أو يضرب بيديه على مدار الفلَك فيُمسكه ماشاء أو يُرسله.

***

جئنا إلى هذه الحياة غير مخيَّرين ونذهب غير مخيرين إن طوعاً وإن كرهاً؛ فمد يدك بالرضا والمتابعة للأقدار أو انزعها إن شئت فإنك على الطاعة ماأنت على الكره وعلى الرضا ماأنت على الغضب؛ ولن تعرف فى مذاهب القدر إذا أنت أقبلت أو أدبرت أى وجهيك هو الوجه،فقد تكون مقبلاً والمنفعة من ورائك أو مدبراً والمنفعة أمامك والقدر مع ذلك يرمي بك فى الجهتين أيهما شاء.

وحرى بمن يؤقن أنه لم يولد بذاته أن لا يشك فى أنه لم يولد لذاته؛ وإنما هى الغاية المقدورة المتعينة فلا الخلق يتركونك لنفسك ولا الخالق تارك نفسك لك.

كذلك كان صديقي وماهو إنسان من الناس، وقد بلغ من العمر أربعة عقود ولكنه يحس منذ الصغر أنه رجل هرم أوكما يقول بعض الفلاسفة[1]فى تعليل ذكاء الأذكياء أنهم يتذكرون مايرونه ولايتعلمونه لأن فيهم نفوساً خرجت من الدنيا كاملة ثم رجعت لتزداد كمالاً. وتلك خرافة؛ ولكن من نقص هذا الإنسان أنه لايستطيع التعبير عن أكبر الحقائق وأدقها إلا بأسلوب خرافي. . .

قال لى هذا الصديق يوماً: إنى بلغت أربعة عقود ولكنها فيما عانيت كأنما

(١) ينسب هذا الرأي لأفلاطون.

تضاعفت إلى أربعين عقداً؛ وقد انتهيت من دهرى إلى السن التى ينقلب فيها الآدمى من وفرة القوة ليثاً[1] ويرجع من قوة الحكمة نبياً ويعود من تمام العقل إنساناً. غير أن هذه الأربعين بما تعاورت علىّ قد هدم فىَّ بعضها بعضاً، فإن أكن بناءً فذلك صرحٌ ممرد عمل فيه أربعين معولاً فما أبقت حجراً على حجر؛ وإن أكن حَومةً فقد اعترك فيها للأقدار أربعين جيشاً فما تُؤرخ بنصر ولا هزيمة. يا ويلتا من هذه الدنيا. إن مصيبة كل رجل فيها حين يصير رجلا أنه كان فيها طفلاً وماعلم أنه كان طفلاً.

تلك حياة الصديق وكانت ليلاً طويلاً انبسط عليه فَنَن[2] من الظلام كأنه مُورِق بالسحب والغمائم السوداء لا ينقشع بعضها عن بعض حتى كأن صباحه مات فيها أربعين سنة ثم انبعث آخر من وجه فتاة أحبها فأشرق له من غرتها واستضاء عليه فى وجهها وطلعت شمس حبه من خديها حمراء فى لون الورد إذ امتزجت أشعتها بظلماته.

ويؤخذ من رسائل أن صاحبته كانت من قوة الجاذبية كأنها كوكب جذب منه كوكباً آخر، ومن فتنة الحسن كأنها رسالة إلهية إلى هذه الأرض بل إليه وحده فى هذه الأرض. أدارتها هذه الحياة طويلاً وأدارتها ليجىء موضعه إلى جانبها فكأنما أرادت منه فلكاً عاتياً لا يتزحزح إلا بعد أربعين سنة كاملة. . . .

رجل وامرأة كأنما كانا ذرتين متجاورتين فى طينة الخلق الأزلية وخرجتا من يد الله معاً. هى بروعتها ودلالها وسحرها الأزلية وهو بأحزانه وقوته وفلسفته، فكان منهما شىء إلى شىء كما توضع زجاجة الحبر الأسود إلى جانب يتيمة من الألماس أُجيد نحتها وصقلها وتكسر على جوانبها شعاع الشمس فإذا هى من كل جهة ثغر يتلألأ وإذا بالزجاجة ولو على المجاز «ألماس أسود».

كانا فى الحب جزءين من تاريخ واحد نَشر مانشر وطوى ما طواه، على أنها كانت له فيما أرى كملك الوحى للأنبياء ورأى فى وجهها من النور والصفاء ما جعلها بين عينيه وبين فلك المعانى السامية كمرآة المرصد السماوى، فكل مافى رسائله من البيان والإشراق هو نفسها، وكل مافيها من ظلمات الحزن هو نفسه.

***

(١) قلت: الليث: الأسد، واللبئة: من الإبل الشديدة. كما فى القاموس.

(٢) قلت: الفنن: الغصن كما فى القاموس.

هدمت الأقدار هذا الصديق حتى انحط كل مافيه من العزم والقوة فجاءت «هي» تبنيه وتشدّ منه وترمم بعض نواحيه المتداعية وتقيمه بسحرها بناءً جديداً وتحفت به عنايتها زمناً حتى صَلُحَ على ذلك شيئاً فايسرت روحه من فقرها إلى الجمال والحب. ويقول صديقى: «أنه ليس على الأرض من يشعر كيف ولدته أمه ولكنى رأيت بنفسى كيف ولدت تلك الحبيبة نفسى؛ مرّت بيديها على أركانى المتهدمة وأعانتها الأقدار على إقامتى وبنائى، غير أن هذه الأقدار لم تدعها تبنينى إلا لتعود هي نفسها بعد ذلك فتهدمنى مرة أخرى».

يصف حبيبته فى هذه الرسائل كأنه مسحور بها فيجيء بكلام عُلوي مشرق كتسبيح الملائكة يمازجه أحياناً شيء يحار فيه الفهم لأن أحدنا إنما يرسل فكره وراء قلمه، أما هو فيرسل نفسه وراء فكره ويستمد قلمه منهما فمنزلته أن يكتب ثلاث كلمات ومنزلتنا أن نفهم كلمتين، والإنسان منا كاتب مفكر،أما هو فقد زاد بصاحبته فكان كاتباً مفكراً وملهماً.

ومما لاأكاد أفهمه أنه يكتب كتابه محب أحياه الحب ومبغض قتله البغض؛ فإنى لأعلم أن كل شيء حبيبٌ ممن نحبه حتى البغض إذا كان يدل على حبه ولو دلالة خفية. بيد أن صاحبى يجفو جفاء شديداً فلعلها أنفة غلبت بها النفس على القلب فحولت الحب إلى جفاء والجفاء إلى غيظ والغيظ إلى مقت وإنما المقتُ أول البغض وآخره.

***

ياصديقي المسكين لا يحزنك فإن آخر الحب آخر لأشياء كثيرة... وإن من بين النساء نساء أولهن كالشباب وآخرهن من أشياء كالهرم والضجر والضعف والموت.

وياجمال النساء إن كان في الأشياء ماهو أحسن وأجمل فإن فى الأشياء ماهو أنفع وأجدى، وقد تكون الجدوى والمنفعة من الجمال في بغضه أحياناً أكثر مما تكون فى حبه.

ويارحمة الله من فوق سبع سماواته لقد علمتنا بما نجده فيسُّرنا، وما ننساه فلا يضرنا، أن لانيأس منك أبداً ولو كنا من الهم تحت سبع أراضيه.

مصطفى صادق الرافعى

الذكرى

ما أشدَّ على قلبى المتألم أن لا يأخذ بصرى من الناس إلا من يتدحرج فى نفسى ليهوى منها أويتقلب فى أجفانى[1] ليثقل على عينى؛ وأحاول أن أرى تلك الطلعة الفاتنة التى انطوى عليها القلب فانبثَّ نورها فى حواشيه المظلمة، وأن أملأ عينى من قمر هذا الشعاع الذى جعل السماء فى جانب من صدرى؛ فإذا ماشئت من الوجوه إلا وجه الحب، وإذا فى مطلع البدر من رقُعة سوداء لاتبلغ مد ذراع ويغشى الكون كله منها ما يغشى. فاللهم أوسع لقلبى سعةً[2]يلوذ[3] بها.

العالم لكل الناس. غير أن لكل إنسان عالماً هو خالصةُ نفسه[4]؛ وعلى أن هذه الدنيا مترامية إلى كل جهة تتدلى عليها السماء، فإن أراضيها الخمس بما رَحُبَتْ لا تقوم عندى بتلك الجدران الأربعة التى رأيت فيها من أحببتها؛ رأيت من هذه صورة قلبى فلا عَجَبَ أن تكون تلك الجدران صورة ضلوعى. وما أدرى أذلك سِحرٌ أم تلبيسٌ أم تخييلٌ[5]؛أم هو الحب؟

إذا كنت شاعراً فأضْلَلْتِ نفسك فنشدتها طويلاً وقلَّبت عليها آفاق النفوس وأفلاك القلوب فإنك لن تصيبها إلافى نفس امرأة جميلة يجعلها مهندس الكون مركزاً للدائرة التى تنفسح بأقطار نفسك ذاهبةً بكل قُطر إلى جهة من أمانى الحياة.

وإذا كنت حكيماً فسألت نفسك سؤال الفلاسفة: من أنا؟ ووجدت فى نفسك ذلك السر الخفى يقول عنك : من هو ؟ فإنه لن يظهر لك معنى«أنا وهو» إلا إذا وضع الحب بينهما «هى»...

وإذا كنت رجلاً من عامة الأرض اندمجَ فى جلدة من الثرَّى[6] فإن نفسك لن تُحسَّ جوهرها الإلهى إلافى نفس حبيبة وإن كانت من عامة السماء... فالحب يجعل الناس أعلاهم وأسفلهم صاعدين أبداً من أسفل إلى أعلى.

(١) كناية عن الثقل وفلان يتقلب فى أجفان عينى أى ثقيل .
(٢) أى اجعل له سعة لا تضيق به السلوة.
(٣) قلت: اللوذ بالشيء : الاستتار والاحتضان به كما فى القاموس .
(٤) مايستخلصه لنفسه ممن يحبهم كأنهم من نفسه. (٥) مايخيل للعقل ويجعل الأمور ملتبسة.
(٦) كناية عن الرجل من العامة لاهم له إلا هم العيش فلا يعلو عن الأرض.

إنى أخط فى هذه الصفحات صورة من الزمن الفانى تصور خطفة البرق التى خطرت فى سماء العمر من ابتسامة ملتهبة كانت سيَّالة بكهربائها؛ وإن فى القلم لشيئاً إلهياً يدفع الموت والنسيان عن المعانى التى تُكتب إلى أجل طويل، كأن القلم ينتزعها من الإنسان الذى هو قطعة من الفناء ليبعد الفناء عنها. هى **«رسائل الأحزان»** لا لأنها من الحزن جاءت ولكن لأنها إلى الحزن انتهت، ثم لأنها من لسانٍ كان سلْماً يترجم عن قلب كان حرباً، ثم لأن هذا التاريخ الغَزَلى كان ينبع كالحياة وكان كالحياة ماضياً إلى قبر.

ليس بينى وبين الهوى شأنٌ ولاعداوة ولكنها تركت فىّ ثلاثاً: قلب أخلص لها وأوغرته [١] عليها، وبقايا آلام كأنها أشلاء[٢] من فريسة تشير إلى تاريخ من الموت والألم والتمزيق، وتركت مع هذين اسمها الذى أحفظها فيه بجملتها، وقد يحسم الداء [٣] ولكن اسمه يبقى داءً مابقى. فهذه الأسماء أكثر ماأنتَ واجدها إما زيادة على أصحابها فى الحب أو زيادة فى البغض أو زيادة فى الألم، إذ هى عند أشخاصها تطلق على أشخاصها، ولكنها فى الناس تنبه إلى المعانى والحوادث والصفات المجسمة التى تنتشر عليها النفس أو تنقبض ويتحرك لها الدم حباً أو بغضاً ورغبةً أو رهبة وعطفاً أو غلظةً وأحياناً . . . إهمالاً أو ازدراء.

والحبيب قد يتحول إلى كلمة أو قبلة أو معنى من المعانى إذا أراد محبه أن ينقله معه إلى أى مكان وهو باق فى مكانه؛ الكلمة والقبلة والمعنى: هذه هى الجهات الثلاث التى تنفذ منها النفس إلى أحبابها حين يخفيهم الغَمام الفاصل بين الحياة والحياة إذا ابتعدوا أو هجروا، أو الغمام الضارب بين الحياة والموت إذا لحقوا بالأبد. أما الجهة الرابعة فحين تفتح للمحب يُلقى جسمه ويصعد بروحه ويختفى هو فيها . ولعمرى إنى لأريد أن أنساها ثلاث مرات لا مرة واحدة ولكنها فى ذكراى كأنها ثلاث نساء: واحدةٌ فى الرضا وثانية فى الغضب وثالثة بين ذلك؛ واحدة فى كلمة وأخرى فى قبلة وثالثة فى معنى من المعانى. . . .

---

(١) أحفظته وملأته حقداً.

(٢) أجزاء

(٣) تنقطع مادته ويبرأ.

السعادة تنصرف عنا فى أكثر الأحيان ليكون تلهفنا عليها واهتياجنا لها سعادةً على وجه آخر وكأنما أوشكت[1] لنا من هذه الجهة وهى ذاهبة؛ وإذا لم يكن الإنسان بأشدّ حاجة إلى الطعام فى وقت منه إلى الجوع فى وقت غيره فكذلك هو فى غذاء روحه وعواطفه، يفقد السعادة وقتاً كالجوع ووقتا كالصوم .

وإن هذا لهو بعضُ أسرارالحكمة الإلهية فى الشقاء الإنسانى ولكنه كذلك من أسباب سوء الفهم فى الإنسان .ولقد ذهبت هى كالسعادة فلا أطمع أن يتنفس قلبها على قلبى أو يتنهد صدرها لصدري ، غير أن الشاعر الروحانى الذى يسعد بالحب إذا أرضى الحبّ نفسه يكون أسعد بالهجر إذا أرضى نفسه كذلك ،ومع الحب عالم كثيف يُنشئ فى كل يوم ألماً ، ومع الهجر عالم مجرد يُحدث فى كل يوم سلوة.

فلنترك المادة للمادة يتحطم البغض والغيظ فيهما وتتخلص الروح إلى الروح كنور فى المشرق ينبعث إلى نور فى المغرب ؛ وإذا ابتعد نجم عن نجم استطاع كلاهما أن يِلْمَحَ للآخر لمحةً مبتسمة من بعيد ،يجعلها البعد شعاعاً صافياً وإن كانت فى ذات نفسها شعلة من جحيم يتضرمً[2] .

إن هذه الذكرى حياة أبثها منى فى نسيانها فما أهنأنى أن يجيئنى من نسيانها شيء تبثه هى فى حياتى.

(....)

***

(١) أى قربت وعرضت .

(٢) قلت : يتضرم : يشتعل كما فى القاموس .

بعدما كنتَ وكنا [1]؟

يارياضَ الغزَالَ فى سَرْحِكِ الفيْـ ـنانِ يَهْفُو بنا النُّحولُ غُصونَا [2]
ما الذى يجعل المحبَّ سعيداً غيرُ من غَادَرَ المحبَّ حزينا
ليتنى فى ثَراكِ نَبْعٌ ويأتى يَتَراءَى الغزالُ فى النَّبع حينا
ليتنى فى رُباكِ ظِلٌ ظَليلٌ لِيَلُوذ الغزالُ بى ويلِينا

***

بعدما كنت ياغزالٌ وكنا ما الذى تَحسَبُ الهوى أن يكونا؟

***

(١) كل ما يأتى فى هذه الرسائل من الشعر فهو منها.
(٢) أصل الفينان الحسَن الشعر الطويلُ واستعيرت هنا للشجر.

الرسالة الأولى

سأكتب هذه الكلمات المرتعشة، وسأبسطُ رِعْدةَ قلبى فى ألفاظها ومعانيها ؛ أكتب عن (. . .)ذلك الاسم الذى كان سنة كاملة من عمر هذا القلب ؛ على حين أن السعادة قد تكون لَحَظات من العمر الذى لا يعد بالسنين ولكن بالعواطف؛ فلا يسعنى إلا أن أردَّ خواطرى إلى القلب لتنصبغ فى الدم قبل أن تنصبغ فى الحبر ثم تخرج إلى الدنيا من هناك بين ما يخفقُ وما يزفِر وما يئن «من هناك»! آه. من ترى فى الناس يعرف معنى هذه الكلمة ويتِّسع فكرة لهذه الظرف المكانى [1] الذى أشير إليه ؟ إن العقل ليمد أكنافه[2] على السموات فيسعها خيالاً كما ترى بعينيك فى ماء الغدير شبكة السماء كلها محبوكة من خيوط الضوء ، مفصلة بعقد النجوم .ولكن هناك فى القلب ؛عند ملتقى سر الحياة بسر مُحييها ؛ وهناك فى القلب ؛ عند النقطة التى يتقطع فيها الطرف[3] بينك وبين من تحب ، حين تريد الجميلة أن تقول لك أول مرة أحبك؛ ولاتقولها. هناك فى القلب ؛وعند موضع الهوى الذى يَنشعبُ فيه خيطٌ من نظرك وخيط أول من نظرها فيلتبسان [4] فتكون منهما عقدة من أصعب وأشقد عُقد الحياة .هناك؟ . . . هذا معنى «هناك»

***

سأكتب أشياء وأضمر على أخرى لاأبوح بها ، ومادام لكل امرئ باطن لا يشركه فيه إلا الغيب وحده ففى كل إنسان تعرفه إنسان لاتعرفه . وليست على المعانى والخواطر سمات [5] تميز بعضها من بعض كبياض الأبيض وسواد الأسود؛ فأنا وحدى أعرف سبب الزلزلة التى أصفها ، والناس بعد كأولئك الخياليين القدماء الذين كانوا يقولون متى اهتزت أثقال الأرض[6]: إن إله المصارعة ينبض قلبه الآن . . . . وأعرف سبب البركان المنفجر وكانت خرافة الأقدمين عندما

---

(١) هناك من ظروف المكان.

(٢)جوانبه.

(٣) تقطع النظر أن ينظر فى إغفاء وفتور كنظر المستحي

(٤) يختلطان وينعقد أحدهما بالآخر.

(٥) أى علامات جمع سمة.

(٦) كناية عن الزلزلة.

تتمرغ الأرض من الغيظ وتلعنهم بأنفاظ من النار ... إن إله حدادة ينفح فى الكير. أنا وحدى أعرف ما أندمج عليه [1] وما يُكِنُّهُ قلبى المتألم الذى أصبح يضطرب اضطراب الورقة اليابسة فى شجرتها نافرةً تتململ إن عَفَتْ عنها نَسمة لا تعفو النسمات كلها. فسآتيك فى رسائلى بالكلام الصحيح والكلام المريض ويتشُعب عليك من خبرى أمور وأمور فلا تحاول أن تهتك سر هذا القلب. وإذا صح أن الإنسان انطوى فيه العالم الأكبر فقد صح أن السماء انطوت فى قلب الإنسان، ماأبعدك عن السماء! انظر انظر فإن السماء تقول لك أيضاً إنها معنى «هناك».

***

لم تحيرنى المتناقضات ولا المتشابهات ولاضقت بأسباب الفكر فيها فإن ذلك الحب جعل فىّ عقلين لا عقلاً واحداً؛ أحدهما يُقرنُّى فى هذه الدنيا والآخر ينقلنى إلى ثانية؛ دنيا الناس جميعاً ودنيا امرأة واحدة ؛ دنيا السموات والأرض ودنيا قلبى.

فى العقل الأول تنحل كل المشكلات، وفى الثانى تتعقد كل «البسائط».... أحدهما قوى فلو اجتمعت عقول أعدائه فى عاصفة واحدة لكان وحده عاصفة تَلفُّ بها لفاً. والآخر ضعيف تُمرضه الابتسامة الواحدة مرضاً طويلاً. ذلك يكسر النفس كسراً ويُرضُّها رَضَّ [2] الهشيم [3] ويَزَعُها من جَمَحاتها؛ وهذا؟ كان الله له لا يشبه إلا الفضاء ما نُسب إلى شيء ولاحسب فى شيء ....الأول جبار يلد المحنة ويميتها، فهو عقل ما ينقطع له من الحيلة مَدَد؛ والثانى خوَّار [4] يمتحن بالنظرة الفاترة المتهالكة دلالاً فتحمل هذه المحنة وتلد فى طريقها إليه فلا تصل حتى تكون محنتين ....وأنا بين هذين العقلين كأنى عالم عجيب حقائقه هى خرافاته، وما مَثَلى إلا مثل النهر الطامى [5] يتدفق إلى البحر وقد فار فائره، فلو سألت أحْفَى مسألة [6] واستعنت بالفنون والأدوات جميعاً لتعرف ما هو ذلك

(١) أنطوى عليه. (٢) قلت: الرض : الدق كما فى القاموس
(٣) الهشيم ما ييبس من دقيق النبات فكسره أهون الأشياء.
(٤) ضعيف لا جلَد فيه (٥) قلت طم الماء طما وطموما غمر كما فى القاموس
(٦) بغاية التدقيق.

الموضع المعين الذى يصل بين منبعه ومصبه لكان الجهل والعلم فى ذلك سواء؛ إذ الموضع فى النهر هو كل موضع فيه على طول ما يجرى ويمتد.

كذلك حيرة الحياه والحب يجاب عنهما بجواب واحد هو نفسه حيرة أخرى؛ ولكنى أكتب الآن وقد تركت الحب وتركنى. خرجت من المعركة فنشبَت نفسى فى معركة أخرى لا أدرى أهى قائمة بين الحب والبغض أم بين الحب والحب؟

أرأيت قط ذئباً قد افترس شاةً وجعل يُفَرفِرهُا[1] بأظافره وأنيابه وهى تنتفض يائسة هالكة؟ إن تكن رأيته فذلك ذئب رحيم لو أنت كنت عاشقاً فرجعت لك من تهواها مما تحب إلى ما تكره فرأيت البغض وما يصنع بقلبك. إنما الذئب ناب وظفرٌ وسَوْرَةُ [2] وَحْش يعترى أكيلَتَه فيسطو بها فيذهلها عن نفسها ثم لايزيد بعد ذلك على طبيب جاهل فى «عملية جراحية».... أما البغض فذئب الدم؛ يُساورِكَ سَوْرَةَ الحُّمى فإذا هو شعلة طائرة فى عروقك لاتدع منك موضعاً إلا مسته ولاتمس منك موضعاً إلا نَقَعَتْ فيه [3] مثل ناب الأفعى من وهَج الحب وسمَّه وغيظه وألمه فما تدرى فى أى ناحية عذابك من هذا البغض ولا من أى الآلام هو؟

ولن تظهر قدرة الجمال ومافيه من القوة الأزلية إلا إذا حملك على بغضه بعد أن يحملك على حبه فيقتلك مرتين كل مرة بسلاح وكل مرة على أسلوب وكل مرة بنوع من الألم. وذلك ضَرْبٌ من العذاب لا تملكه قوة في الأرض لا فى الملوك ولا فى الجبابرة ولكن تملكه بعض النساء الضعيفات ويُعذِّبن به حتى الملوك والجبابرة

مهما يبلغ الألم فى عذاب إنسان فلن يجاوز حالة معينة ثم يغمى على المتألم ويستريح ولو دقّت فى عظامه المسامير؛ كالماء مهما تُوقدْ عليه فلن يعدو درجة معروفة فى غليانه ثم يثبت عندها ولو أضرمت عليه من النار التى وقودها الناس والحجارة. غير أن ألم الحب الشديد حين يكرهك على بغضه نوع منفرد فى كل آلام بنى آدم كانفراد «ذئب الدم» فى جميع ماخلق الله من المعانى الوحشية.

***

(١) يمزقها وينفضها. (٢) السورة : الحدة والبطش. (٣) غرزت.

لم أر وصفاً كهذه أفظع ولا أبعثَ على الرعب لأنه إنما هو موصوفه . . . . فسأخفف عليك فيما يلى هذه الرسالة ولاأذكر لك ثمت إلاما يكون كوصف الجنة تزخرفت له ما بين خوافق السموات والأرض[1]، ولكن دعنى أقل لك إنى أبغض من أحبها، على أنك لو رأيتها لرأيت نفسها تلوح فى وجهها، جميلة كجماله رقيقة كرقته محبوبة كحبه، ولكنى مع ذلك أبغضها والله بغض المحرور لما يتلذَّع[2] من أشعة الشمس، وبغض العين الرَّمداء لما يتلألأ من إشراق الضحى؛ فلا يداخلك فى ذلك ريب ولاشك. وسيبقى سبب هذا البغض من سر الحب الذى لايُعرَف، إن بعض الأسرار فيه ضربة العنق [3] فلا يباح به وبعضها يكون فيه ألم النفس الكبيرة فلا يباح به كذلك؛ ولكن اعلم أنها هى هى وأنه أنا هو. هى الكبرياء كلها لا تستعذرها من شىء فتُعذر ولاتسمح بشىء إلا التَوتْ به[4] وأنا كبرياء الكبرياء ما خُلقتُ إلا محكَمَ المعاقد لا أتثلم ولاأتحطم، وتقلبنى فى يدك ما تقلَّب عضلة الحديد فلا تراها من كل جهة إلا حديداً. هى يمين حلَف الدهر بها لِيكذبنَّ كذبة بيضاء مغشاةً يغرُّ بريقُها ويلتمع ماؤها لمع السراب فتبصر فيها الروح معنى الرِّى لتلتهب منها بالظمأ القاتل يُفيضها على رمل ذهبى صبغته الشمس. . . وأنا؟ أنا كلمة قد استوى ظاهرها وباطنها فإما أن تصدق كلها وإما أن تكذب كلها.

كلمة ليس فيها جزء محبوب وجزء مكروه فلا تحتمل أبداً معنيين. هى كالسيل تنحل به السحب؛ وأنا قمة من الصخر الصلد تغسلها السيول ولا تشققها.

ثم هى من وراء ذلك كله فيها روح بلبل يفر بأغانيه من ظل إلى ظل فى رياض الجمال، وأما أنا ففىّ روح نسر يترامى بصفيرة من جبل إلى جبل فى قفار الحب. حاول العصفور الصغير الظريف أن يطوى النسر فى جناحيه وهو لا يبلغ قصبة فى ريشة فى جناح هذا النسر، ولكنه . . آه ولكنه طواه فى غير جناحيه.

---

(١) هذه الكلمة من حديث فى الجنة، والمراد ملء السموات والأرض، قلت: انظر الترمذى فى صفة الجنة (٢٥٣٨) وأحمد (١/١٦٩، ١٧١) وقيل: معنى خوافق أى آفاق .

(٢) المحرور: الحران ، ويتلذع: يتضرم.

(٣) كالأسرار السياسية مثلاً.

(٤) التوت : غدرت ومنعت وأعذرت جعلتك تعذرها.

أين العقل فى الحب والبغض وبخاصة إذا أفرطت عليك أسبابهما؟ أما إن كل طريق لينفذ فيه الإنسان على بصيرة إلا هذين فإن أحدهما إذا احتواك لم يفلتك وأصبحت فيه كالذى يُطاف به الدنيا ويداه فى قيد، فمهما سوغ[1] من الحركة والاضطراب ومهما انفسحت له الآفاق فإن قدر ذراع من وثاق حريته الذى يشد يديه هو قياس دنياه فى طولها وعرضها ما بلغتْ. فأنا على ماكتب أشعر من أن لى عقلين كنت أرانى فى ذلك الحب كأنى بلا عقل، بل كأنى مجنون من ناحيتين. . . . ويسرف علىّ بغضها أحياناً فأتلهب عليها فى زفرات كمعمعة الحريق[2]. حين ينطق مثل الفك من جهنم على مدينة قائمة فيمضغ جدرانها مضغ الخبز اليابس. ثم يسرف علىّ حبها أحياناً فينحط قلبى فى مثل غمرات الموت وسكراته يتطوح من غمرة إلى غمرة. فأنا بين نقمة تفْجأ وبين عافية تتحول وكأنه لا عمل لى إلا أن أصعد مئة درجة لأهبط مئة درجة. . . . أما ماذا يريد علىّ الصعود والنزول فسل قصبَة الزِّئبق [3] ولاتسلنى. إنه سيال يترجرج فى القلب بين شيء منى وشيء منها؛ وكانت عروقى كأنما ينصب فيها أحياناً دمُ قتيل فيهجم بالموت (الأحمر) على حياتى يريد أن يَغْوِلَها.

إن تلك الفتاه لتُغضب الملائكة الذين لا يغضبون؛ وقد خُلق النساء لامتحان جنون الرجال وخلق الرجال لامتحان عقول النساء؛ وخلقت هى وحدها لجلب الجنون لا لامتحانه. . . . . .

***

أرانى سأبتدئ أيامى من آخرها فإنى لاأقصها عليك وهى تولد بل وهى تموت بعد أن تركتنى كالقنبلة فرغ الحب من حشوها وتريد أن تنفجر . لم أكتب لك إذ كان هواها ناشئاً يرتع ويلعب، وإذ كان ينكسر انكسار فرخ الطائر حين يهدل جناحيه [4] لتمسحه أمه بجناحيها. ولا كتبت إذا كان هواها الجد أشدَّ الجِد وإذا كان كالريح المرسلة لا تقف ولا تنكسر إلا إذا تدلى من السماء جدار يبلغ الأرض أو رُفع من الأرض حائط يبلغ السماء. ولاحين كان الهوى يركض بى ركض

(١) سوّغ : أبيح له.
(٢) صوت الحريق
(٣) الترمومتر
(٤) يرخى جناحيه عند لقاء أمه.

المجنون الذى يجرى وكأنه يجرى وراء عقله الذاهب على غير طريق ولا جادة ولاعلم [1] فلا عقله يقف له ولا هو يدرك عقله .

ولكنى سأكتب وقد ركد الهوى؛ وقد ماسحت قلبى حتى لان من غضبه؛ وقد اجتمع إلىّ رأيى الذاهب. ولاتحسبن إنى سأخط لك قصة فيها اليوم والشهر والسنة وفيها الزمان والمكان وذلك السُّخف الذى يطولون ويعرضون به إذ يستنهجون سبيل الحادثة من حيث تبتدئ إلى حيث تنحدر، فإن هذا مما يحسن فى تاريخ صخرة تتدحرج أما أنا فسأقدم إليك تاريخ لؤلؤة فريدة. هم يغطونك بقية الليل يلمع فى بعض جوانبها نور كوكب يظهر ويغيب. أما أنا فأضعك فى ساعة من السحر بين نسيمها وجمالها ورقتها وذبول الليل فيها ثم ينشق لك الأبيض ذو الحواشى [2].

***

ودعنى أذكر البغض مرة أخرى قبل أن أنساه. إن اللين فى القوة الرائعة أقوى من القوة نفسها لأنه يُظهر لك موضع الرحمة فيها، والتواضع فى الجمال أحسن من الجمال لأنه ينفى الغرور عنه؛ وكل شيء من القوة لا مكان فيه لشيء من الرحمة فهو مما وضع الله على الناس من قوانين الهلاك.

اجمع ياعزيزى إن استطعت سِرباً من الوحوش الضارية وصففها لوناً إلى لون وصنفها شيئاً إلى شيء فإنك سترى فى «جلودها» مكتبة ضخمة من هذه القوانين . . . .والوباء الذى يحلق الناس حلق الشعر فيتساقطون ألوفاً بجرةً من يد الموت . والزلزال الذى يرجهم فى غربال الأرض رج الحصى ينفيه من هنا وهنا . والمصائب التى تبسط العقوبة على النعم فى سطوة كهدير الموجة العاتية حين تصارع العاصفة. والجميلة المغرورة التى تراها فى أخلاقها من طراز كدماغ السكير الفارغ مزيناً بخيالات الخمر وسَورْتها. كل تلك من «قوانين العقوبات»فى العالم الذى خُلق متهمين وقضاةٍ ولا من يحامى. . .

(١)الجادة: الطريق المستوية، والمراد الجرى اعتسافاً.

(٢) الصبح من قول القائل :

فلم شق أبيض ذو حواش   له حال وللظلماء حال

وهذه التى سأقص عليك منها فلسفة الجمال والحب، قوة من القوى لم يجعل الله القسوة فيها إلا لعلمه بها؛ وما ابتساماتها الفاتنة إلا كسجن من البلور الصافى يختنق من يُحبس فيه وهو يتلألأ ... وكنت أراها أحياناً فى جمالها وتأثير جمالها كأنها طاووس من طواويس الجنة على كل ريشة فيه لون من ألوان النار.

نصيحتى لكل من أبغض من حب أن لا يحتفل بأن صاحبته غاظته وأن يكبرنفسه عن أن يغيظ امرأة؛ إنه متى أرخى هذين الطرفين سقطت هى بعيداً عن قلبه فإنها معلقة إلى قلبه فى هذين الخيطين من نفسه.

ما من قفل بلا مفتاح وإلا فما هو بقفل؛ والإهمال والازدراء وسمو النفس ثلاثة مفاتيح لقفل واحد هو قفل الغيظ.

***

لقد هوَّلتْ عليَّ فى كتابك حتى أخرجتَنى عن غيظى إلى غيظ آخر. تقول: «ويحك أراك أخرجت القمر من دارته وجئت به على أعين الناس؛ وإلا فمن تلك التى لمست الفلك الأعلى حين لمست قلبها فكأنما اجترأت على القدر فبما حلَفَ ليتيحنك فتنة[1] تدعك وما يلوى منك شيء على شيء. ومن عساها تكون هذه التى ليسْ فيها إلا مافى الطاووس الميت من ريشه الجميل وهى مع ذلك رضاك [2] فى الحب وفى البغض سواء». ثم تقول: «ولعلها رفعتك إلى الشمس والقمر والنجوم لأنهم عشيرتها وأهلها.... فأنت تخاطبنى فى رسالتك الأولى وكأنك مرتفق [3] تحت جناح جبريل أو متكئ على بساط الريح فتصف مالا عهد لنا به من كلام مفوَّف كأنه غرف الجنة تفويفها لبنة من ذهب وأخرى من فضة وتفويف كلامك جملة من الحب وجملة من البغض. وتنعت غراماً كأنما فصل لك ثوبه من سحابة يمر فيها مِقراض البرق ففى كل ناحية منه فتقٌ من النار» وتسألنى: كيف أجعل نفسى كالميت فلا أكتب إليك إلا يوم تحين الوصية.. ولا أخبرك إلا وقد حلت عقدة القلبين وانفسخت أُلفةُ ما بينهما؟

***

فيا ويحك ألا تعلم أن مِرْجلِ الباخرة حين ينقلب ماؤه لهباً أبيض فوق اللهب الأحمر؛ ينفث نفثة المارد الممدود بسلاسله فى قاع الجحيم، فيرمى بسهام من الذَّرِّ المحرق لو كان فى جهنم رَهجٌ يثور لما كان إلا دُقاق ترابها[4]. أم تُراك لم تدرك من رسالتى أنى أسع من بغض من أحببت فوق ما يملأنى وإن هذا البغض وجه آخر من الحب كالجرح ظاهره له ألم وباطنه له ألم، وما يمسه من ظاهره غير ما ينكتُ فيه من باطنه، أم حسبت أنى أزين لك صور الكلام وأزخرفها بألوان لا تُلتمس إلا لرونقها وانسجامها وحسن تآلفها فمنها الأسود لأنه أسود ومنها الأحمر لأنه أحمر ومنها لون قلبها لأنه لون قلبها...؟كلاّ ثم كلا فلا تتهدَّم علىَّ[5] بمثل

(١) ليقدرن لك فتنة. (٢) أى كافيتك. (٣) مستند إلى مرفقه.
(٤) الغبار الدقيق، والرهج والغبار واحد. قلت: قال صاحب القاموس: الرهج: الغبار والسحاب بلا ماء.
(٥) تتهجم.

ما كتبت واعلم أنه هو ما وصفت لك؛ وأن السحابة التى تراها تدمع حيناً لا يبعد أن تراها قد تلفّتت على صاعقتها ثم اجتمعت أرحاؤها وبواسقها[1] ثم ارتجت ثم.... تنفجر.

ولم أكتب إليك من قبل لأنى أحب بلا غاية أباهيك بها ولا غرض أستعينك عليه ولا سر أستودعك إياه.. وهل رأيت الحب ينكشف إلا فى واحدة من هذه الثلاث، وهل انكشف قط إلا تتابعت عليه أمور وأمور وامتلأت منه الأنفس بالظنون والغفلات؟

لقد أحببت فتاة كأنها قصيدة غزلية فى ديوان شعر لا خطبة سياسية فى حفلة.. فما ثَمَّ إلا معنى دقيق لطيف خلاَّب ساحر؛ كل قولى له: أريد أن أفهمك؛ وكل قوله لى: تأمل تفهم.

إن ألذ المعانى فى هذا الجمال ماجعل ينبو فى يدك كلما ألقيتهما عليه كيلا تستمكن منه؛ ففى كل نبوة يظهرلك منه جانب وأنت معه فى ارتفاع وانخفاض أبداً ولاتزال تجرى ويجرى ، أما أنت فتشتد جهداً فى سبيله، وأما هو ففى سبيل منبعه من الجمال الأعلى الذى أفاضه موجة منه فكأنك ذاهب إلى الجنة حياً ، لايمر بك إلا فى روح وريحان على طريق من لذة النفس لا تنتهى إذ هى من حيث لا نعرف إلى حيث لانعرف ، وتغدو كأنك فى تلك اللذات الروحية طفل لايكبر مادام فى عمر الحب . والحب الروحى الصحيح إنما هو كالطفولة لاتعرف وجه الفتى إلا شبيها بوجه الفتاة فليس فيه تذكير وتأنيث بل حالة متشابهة كاخضرار الشجر تبعث عليها الحياة حين لايجيء الحس فيها إلا من جهة القلب. وما أرى الشجرة حين تخضر إلا قد نبتت فيها كلمة من قدرة الله ذات حروف كثيرة؛ ولا الزهرة حين تتعطر إلا قد لاح فى جمالها معنى بديع من حكمة الكلمة الإلهية، ولا الإنسان حين يعشق عشقاً صحيحاً كما تروح الشجرة وتنفطر[2] إلا قد صار قلبه كتاباً من تلك الحكمة النقية الجميلة المعطرة.

كذلك يكون هذا الحب عند الذين خلقوا للشعر والحكمة إذا هم اتصلوا به

(١) أعاليها وأسافلها.

(٢) أى على هذا الأسلوب الطبيعى الذى لاصنعة فيه حين ينفطر الشجر ويخرج أوراقه .

فإنه لا يهبط إليهم من السماء إلا ليملأ أوعيتهم ؛ وفى هؤلاء خاصة يكون الحب الإنسانى هو السرب [1] الذى يتخذونه سبيلهم إلى غوْر ما[2] فى الأمواج الإلهية العظمى التى لاتنتهى أعماقها فيغوصون ويخرجون وفى أيديهم أفلاذ الحكمة ولآلئها؛ ومن شفتى المرأة الجميلتين يخرجون للناس كلام السموات .

أما الآخرون . . . . فتلك عقول كادها بارئها [3] . عقول الناموس الأصغر العامل فى حرْث الأرض . . . .[4] يضم أحدهم يديه على الجمال فيتلقفه فيجعل أصابعه أعواد القفص لهذا الطائر ويقول له لطالما التمستك فى جو السموات وطالما كنت وكنت فههنا فاستقر .

ولا يراه بعد قليل إلا كلما اغْترَفَ غَرْفَةً من الموجة؛ كانت حركة تفور فأصبحت سكوناً هامداً، وكانت ملء البحر فصارت ملء الكف ، وكانت موجة فصارت . . آه فصارت بصقة. . .

***

أقول لك أحببتها لا كهذا الحب الذى تراه وتسمع به فى رواية تبتدئ وتنتهى فى جزءين من رجل وامراة؛ ولاكالحب الذى يؤلفه الكتّابُ والشعراء حين يجمعون عشرين معنى فى كلمة أو يرسلون عشرين كلمة لمعنى . . . . . ولا كالحب الذى يباع ويشرى فتأخذ منه بالدينار أكثر مما تأخذ بالدرهم . . . ولا كالذى تجيئه وأنت من الإشراق والنور كزجاجة الخمر فيعيدك وأنت من الظلمة والسواد كزجاجة الحبر. . . . أحببتها ولا كالحب نفسه. منذ الذى قال: «من يهلكْ نفسه من أجلى يجدْها »؟

أظنه المسيح وقد كانت هى تتمثل بها كثيراً[5]؛ ولكن هذه الكلمة بعدُ كلمة الحياة الأزلية التى تقول للناس حين يشكون فيها: موتوا لتعرفوا. كلمةُ الجمال

---

(١) الطريق تحت الماء.　(٢)الغور: العمق.　(٣) أرادها بسوء.

(٤) فى القرآن الكريم: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ﴾[البقرة: ٢٢٣] وهو مجاز على التشبيه لا نظير لبلاغته يفهم منه معانى كثيرة فافهم .

(٥) فتاه هذه الرسائل سورية مسيحية تعرف إليها الصديق في لبنان ثم قدمت إلى مصر أشهراً فاتصل بها ثم ضرب الدهر بينهما وسافرت إلى حيث لا يدرى بعد أن سافرت من قلبه.

الأعلى الذى يقول للشمس حين تصفَرُّ: اغرُبى لتصبحى بيضاء حيةً فى النهار كلمة الحب الصحيح الذى يقول للمبتلى به: تعذّبْ لتعرف كيف تتخيل السعادة وتتمناها. كذلك ترانى لا أحب إلا لثلاث: لأعرف وأحسن وأتخيل؛ ولا أهلك بالحب إلا لثلاث: لأوجد فى نفسى وأبقى فى نفسى وأضم نفساً إلى نفسى.

***

أفهمت أيها الصديق أم أزيدك؟ ها أنا أهبط عليك من الفلك الذى تقول إنى لمسته حين لمست قلبها. فاعلم أنى لا أحب فيها شيئاً معيناً أستطيع أن أشير إليه بهذا أو هذه أو ذلك أو تلك؛ حتى ولا «بهؤلاء» كلها.... إنما أحبها هى هى كلما هى هى، فإن فى كل عاشق معنى مجهولاً لا يحده علم ولا تصفه معرفة؛ وهو كالمصباح المنطفئ ينتظر من يُضيئه ليضىء فلا ينقصه إلا من فيه قِدْحَةُ النور[1] أو شرارة النار، وفى كلام امرأة جميلة واحدة من هذين ولكن الشأن فى تحرك القلب حتى يدنى مصباحه لَتعلَقَ به الشعلة فيتقد وما يحركه لذلك إلا القدر. وما أحكم الناس إذ يقولون فى بعض حوادث الحريق إنها «وقعت قضاء وقدراً»، فكل حريق القلوب لا يقع إلا هكذا....

ومتى قَدَحَت الجميلة على قلب رجل أضاءته فيضيئها نوره بألوان من الحسن لا يراها ولا يدركها ولا يصدق بها إلا صاحب هذا القلب. فلو أن الشمس دامت تصب أشعتها على طلعة هذه المرأة ألف سنة تحياها جميلة شابة لا تضعف ولا تَرِقُّ سنُّها[2] لما كشفت لأعين الناس شيئاً من تلك المعانى السحرية التى يكشفها ضوء قَلب عاشقها لعينيه؛ وما ضوء قلبه إلا منها فلن تكون فيه إلا ما أحبت أن تكون فيه.

بَيْدَ أن مصائب المحبين إنما تأتى من انقلاب المصباح فيستطير حريقاً لا ضوءاً وترى النار تَعْتَلِجُ فى القلب وذُؤابتها تتلوى فى الرأس ويصبح العاشق مُرنَّحاً[3] بما اعتراه من الوهن والضعف كأنه فى جملته وفيما لبسه من الهم والسواد ما تراه من بقية بيت محروق.

رأيتها مرة فى مرآتها وكانت قد وقفت إليها تسوِّى خُصلَة من شعرها الأسود الفاحم المتدلى عناقيد عناقيد، ولم يكن بها ذلك كما علمت بعدُ؛ وإنما أرادت أن

(١) الشعلة من النور. (٢) كناية عن الهرم. (٣) متساقطاًمن الضعف.

تطيل نظرها فيّ من حيث لا أستطيع أن أقول إنها هى التى تنظر فإن ذلك الذى ينظر كان خيالها. . . فلما انتصبت إلى المرآة خيِّل إلىّ أنى أرى ملكاً من الملائكة قد تمثل فى هيئتها وأقبل يمشى فى سحابة قائمة من الضوء؛ أو أن يد الله فى لمح النظرة قد رسمت هذا الجمال على تلك الصحيفة يتموج فى ألوانه الزاهية؛ أو هى قد أرادت أن تبعث إلىَّ بكتاب يحتويها كلها ولا يكون فى يدى منه شىء فأرتنى مرآتها .

ألا فاعلم أن هذه التى فى المرآة وهذه التى أمام المرآة وهذه التى فى قلبى؛ ثلاث فى واحدة. ولو هممت أن أضع يدى عليها فرت من يدى لتختبئ فى مرآتها وتفر من المرآه لتختبئ فى قلبى، فكأنما كنت أعشق مخلوقة من مخلوقات الأحلام لا تدرك بجميع أجزائها وإذا أدركت بقيت وهما لا تناله يد . وهى كالملائكة قادرة على التشكل إلا أنها تتشكل فى الذهن فبينا تراها شخصاً جميلاً إذ هى فكرة جميلة تتعطف عليها حواشى النفس، وبذلك تستطيع أن تشعرنى أنها فىّ وإن كان بيننا من الهجر بعد المشرقين، وأن تنزل بالسلام على قلبى وإن كانت هى نفسها الحرب ؛ وأن تجعلنى أحبها وإن كان بغضها يأكل من جوانحى.

تراها مع أى أحوالها كالسعادة تَخَيُّلُها هو هى . .

ولولا ذلك ما احتملتُ غضبها وإن لها لغضباً تجمح فيه فتملأ جو النفس بمثل الغبار الذى يثيره الجواد الكريم إذا انْجَرد للسبق وترك أعناق الخيل تتقطع عليه ولا تلحقه فتراه يغضب ويتميز ويحاول أن يسبق جلده وأن يخطف أرض الله كلها فى حوافره. تغضب على أسلوب من هذا الطراز أو من طراز البحر الزاخر حين يَتَقَلَّع فى أيدى الأعاصير أو من طراز الأرض حين تَتَخَلَّع فى أيدى الزلازل. وأحياناً من الطراز الرقيق حين تتجاهل فى غضبها محباً هي بعض تاريخه فتدعه يشعر أن فيه مكاناً مجهولاً وأن من قلبه قطعة منزوعة. ومرة من الطراز العسير حين تلوى وتُعَقِّد حتى تتركنى وكأنى ما أجد في الدنيا مكاناً ليست فيه ولا مكاناً هى فيه. . .

وكل هذه الأساليب شروحُ وتفاسير؛ أما المعنى الذى تدور عليه فهو هذا : داء الحب نقداً والدواء عند السين وسوف. . . . عند هذه الجميلة التى هى أكذب ما فى الصدق عند محبها وأصدق ما فى الكذب على محبها.

الرسالة الثالثة

"حيلة مرآتها"

حسناءُ ، خالقُها أَتمَّ جمالَها ... سألتْه مُعجزةَ الهوى فأنالها
لما حَباها الله جلَّ جلالهُ ... بالحسن منفرداً أجلَّ جَلالَها
تُضْنى المحبَّ كأنما اجفانُها ... ألقت عليه فُتورَها وملالَها
هيفاءُ قد حسب النسيمُ قَوامَها ... غُصُناً فإن خطر النسيم أمالَها
سيَّالةُ الأعطاف أين ترنَّحَتْ[1] ... تُطلِقْ لكَهربَة الهوى سيَّالَها
طلبوا لها شبَهاً يُضيء ضياءَها ... لهوى النواظر أو يُدِلّ دلاَلَها
أما السما فَجلَتْ عليهم بدرَها ... والأرضُ قد عرضت لذاك غزالها
لكنها نظرت فأخجلت الظِّبا ... وتلَفَّتتْ للبدر فاستَحْيى لها
هم يطلبون مِثالَها فليرْقُبوا ... مِرآتَها يجدوا هناك مِثالَها
مرآةُ فاتنةِ النفوس وصفحةٌ ... تتلو بها أرواحُنا آمالَها
لما عجزنا أن نفصِّل وصفَها ... جمعتْ لنا مرآتُها إجمالَها
واهاً لمرآة البخيلة لو رثَتْ[2] ... يوماً فأهدتْ فى الجفاء خيالَها
تتلألأ الضَّحِكاتُ فى جَنَباتها ... فتخالُ ضوء الشمس هزَّ صِقالَها[3]
من ثغرها من منبع النور الذى ... نَبَعَتْ به ضَحِكاتُها فأسالَها
تَتنقَّلُ اللحظاتُ في أنحائها ... قتَّالهــا مُسْتَتْبِــعٌ قتَّالهـــا
جرحتْ بها وبهُدْبها[4] وكذا الهوى ... أبداً يَعُدُّ من السيوف ظِلالَها

---

(١) قلت: الرنح: الدوار، وترنح: تمايل سكرا أو غيره كما فى القاموس

(٢) قلت: الرث: البالى كما فى القاموس .

(٣) قلت: حقال المرآة ماؤها ورونقها. كما فى القاموس .

(٤) قلت: الهدب: شعر أشفار العينين كما فى القاموس .

حوريّةٌ شهدت لها جنّاتُها   وجمالُ عينيها شهادتُها لها
وكأنما المرآة من أفُق السما   وكأنها مَلَك يلوح خلالَها
وقفت لها يوماً فألقتْ نظرةً   حَيْرى تُشابه وعدَها ومطالَها
نظرتْ بلحظ نافذ لو أنهُ   لقى الإرادة نفسَها لاغتالَها
نظَرات حواءَ التى أوهتْ بها   عزَمات آدمَ يوم ضلَّ ضلالَها
فرأت عَلى المرآة وجهاً ظَنَّهُ   ملكَ الجمالَ يحاولُ استقبالَها
راع المليحة منه فرطُ جماله   أم راعها أن لا يكون جمالها؟
فرنَتْ بنظرتها إليه تُطيلها   ورنا بنظرته لها فأطالها..
لحظان لو رجفَا عليك تراجفَتْ   كرَةُ الفؤاد فزُلْزلَتْ زلزالَها
نظرت لها حسناً إذا ما احتلَّ فى   دول النُّهى سلب النهى استقلالَها
ورأتْ لسحر جفونها ما راعها   ورأت لفتك لحاظها ما هالَها
فتذكرت شمسُ الجمال متيّمًا   تركته من فرط النحول «هلالَها»
ما زال يشكو «الصدَّ» حتى بغَّضت   فى نفسه «صاد» الحروف «ودالَها»
ورأت صفا المرآة يشبه قلبَه   مهما تُحمِّلْه يكن حمَّالَها
فتنهّدتْ أسفاً عليه وانشأت   عبَراتُ رحمتها تجولُ مَجالَها
جزعت له يُعنى العناية كلَّها   وتريُه كلَّ ثوابه إهمالَها
حالان خيرهُما وشرُّهما سُوى   ومن المنافع ما يجرُّ وبالَها
جُهدُ المقامر أن يحاول حيلةً   ولكَمْ أضرَّتْ حيلةٌ محتالَها
والعمر آمالٌ وما جلَبَ الشقا   إلا ابتغاء الطامعينَ مُحالَها
إن الذى أعطى النفوسَ عقولهاَ   جعل القناعة للنفوس عقالَها
جرَت الخواطر بالمليحة لحظةً   *شغلت بأحزان المتّيم بالَها
فبدا عليها بعضُ ما قد ناله   وبدا عَلى المرآة ما قد نالَها
ورأت لها وجهاً تغشّاه الأسى   والحسنُ قد منع الأسى أمثالَها
كادت تقول «رضيتُ عنه» فامسكت   ومضتْ عَلى عجل لتُخفىَ حالَها
أوّاه لو مرآتُها نجحت.. ولو   فَمُها تبسَّم عند ذاك «وقالَها»

الرسالة الرابعة

ما أحلاه كلاماً وأنداه على كبدى هذا الذى تقوله فى كتابك: «لو كانت تلك الفتاة الساحرة شجرة يابسة قد تَحاتَّت[1] وكان النساء كلهن شجراً أخضر لأورقت عليك وأثمرت، فإن فيك وفيها القوة والسبب، ومن مثل هذه القوة وهذا السبب تخرج معجزات الحب».

آه لو صح ذلك. إن بعض الرجال يكون فى صفاته كذباً على الرجال فهذه والله كذبٌ على النساء ولو جاز لقلت إنها وُلدت خطأً فى هذا الجلد؛ بل ما وضعها الله فيه إلا لعلمه بها وليجعل منها علماً لمن شاء أن يَدْرُس بروح الرجل المحب أو المبغض جمالاً شاذًّا فى روح امرأة تحتمل الحب والبغض معاً. لم يكن فىَّ وفيها القوةُ والسبب بل القوةُ والقوة، وما كنا إلا كدولتين متحالفتين تمنع قوتهما أن تعتدى واحدة على واحدة، ويَشقُّ ذلك عليهما فتعبِّران عن لفظ القوة بلفظ أرقَّ وأجمل وهو المحالفة؛ ثم يرق هذا اللفظ فتخرج منه الصداقة، ثم ترقُّ هذه فيجىء منها الحب. ولا حبٌّ هناك ولا صداقةَ ولا محالفةَ بل هى أساليب سياسية فى لغة القوة حين تخشى وحين تطمع.

لقد أذكرتنى بالشجرة اليابسة يوماً جميلاً وكلاماً أجمل منه فأنا باعث به إليك وإن كان قد بَعُدَ به العهد إذ وقع أول معرفتى بها فى قرية.. بلبنان. هناك زهر أصفر يلوح للعين كوجوه الدنانير يسمونه «الوزَّال» وهو طيِّب الرائحة ولكنه خبيث النَّبْتة لا يكون إلا فى مثل الرماح من الشوك. وكان لها ولعٌ شديد بهذا الزهر لطَبع من أشواكها وأشواكه فقد نلتُ من كليهما.. وسنحتْ لها على زهرة منه فَراشة زاهية مصبوغة فوثبت إليها واشتدت وراءها وكانت الفراشة تفوتها وتستطردُ لها وتعبث بها عبثاً بين أن تلوح وتختبئ. ثم رجعت «الفراشة الكبيرة» بعدما انقطعت وقد تزاحمت الأنفاس على صدرها وجعل قلبها يغيظنى بدقَّاته غيظاً شديداً إذ كان يخفق من البُهر والإعياء لا من شىء آخر.. وتساقطتُ تحت شجرة من التين فلما أراحت وثابتْ إليها نفسها قالت: فراشةٌ لا تبلغُ عقدة إصبع من

(١) تساقطت أوراقها من اليبس أو عارض ما.

ثوبى وتعنِّينى هذا العناء كله ثم أرتدُّ عنها خائبة؟ قلت: بل خائبة؟ خيبةَ المفلس يعدو يومه وراء «الدينار الطائر» فلا يدركه. فاجتذبتها إلىَّ كلمة «الدينار الطائر» ومن خصائصها أنها لا تُعجب بشىء إعجابها بدقة التعبير الشعرى - وسأستوفى لك هذا فى رسالة أُخرى. إنها تريد أن تجمع إلى صفاء وجهها وإشراق خدَّيها وخلابتها[1] وسحرها؛ صفاء اللفظ وإشراقَ المعنى وحسنَ المعرضِ، وجمال العبارة، وهذا هو الحب عندها؛ تحبك كما تحب كلمةً تكتبها أو معنى تتخيله فإذا سئمتك لم تكن عندها إلا الثالثة. . إلا صحيفة تمزّقها. .

ورفعتْ رأسها إلى الخيمة الخضراء ثم قالت: هذه شجرة تين. قلتُ: وماذا فى أنها شجرة تين؟ قالت: ألا تعرف تينة الإنجيل؟ قلت: وإن فى الإنجيل لتينةً ليست كغيرها؟ قالت: كان من خبَرِها[2] أن المسيح مرَّ فى جماعته وهو جائع فرآها من بعيد فَينانةً[3] خضراء تهتز كأنها تدعوه ولم يكن أبّان هذه الفاكهة؛ فَعدَلَ إليها لعله يجد فيها شيئاً يَطعمهُ فلم يجد غير ورقها الذى لا يؤكل فقال لها: خَسئتِ لا يأكلنّ منك أحدٌ ثمراً بعد اليوم. وانحدروا إلى أورشليم؛ ولما أصبحوا انقلبوا فمرّوا بشجرة التين فإذا هى خاويةٌ قد نزعت ثوبَ نَضرتها والتفَّت فى كَفَن من اليبس وماتت واقفة. فرماها بطرس بعينيه وقال: انظر يا سيد! إن هذه التينة التى مَرَدَتْ عليك فلعنتها قد ماتت وثراها حىٌّ بعدُ.

قلت: هذه لَعمرى هى المعجزة، تموت الشجرة وثراها حىٌّ وتجرى اللعنة فى أعوادها فتتشرّب ماءها وتتركها يبساً لا تصلح إلا للحريق، وتنقلب الشجرة الخضراء فى ليلة من خشب الله إلى خشب الناس، ولكن ما ذنبُ الشجرة المسكينة إذا لم يكن موعدَ فاكهتها ويريدها المسيح على غير طبيعتها؟ قالت: فإن الذنب فى اخضرارها كأنها ذاتُ ثمر. قلت: أو ليس للثمر وقتٌ قد مضى، وهل الشجرة إلا شجرة؟ أم تحسبينها تُدير الشمس وتقلب الفصول لتعقد الماء ثمراً حلواً؟ ألا إن الشمس تدور ثم يحين الفصل ثم ينعقد الماء ثم يحلو التين فينضج فيؤكل. قالت: إنك لتجىء بالدواهى فماذا تقول أنت.

---

(١) قلت: الخِلْبُ: بالكسر لحيمة رقيقة تصل بين الأضلاع كما فى القاموس .
(٢) هذه القطعة من إنجيل مرقس وقد ترجمناها من عربيتهم. . إلى عربيتنا.
(٣) قلت: فينانة: كثيرة الشعر كما فى القاموس .

أقول اعلمى أن فيلسوفاً يونانياً كان قبل المسيح(١) وكان يرى أن تلك الشجرة ومثلها مما سَفَلَ وعلا من قَدم الكون إلى ذؤابته إنما هى الإرادة البشرية بعينها إلا أنها لم تكتمل لعلة ما، فكأن العالم عند هذا الفيلسوف إنسانٌ غيرُ سَوِى ذهب طوله فى عرضه فلم يُعرف شىء من شىء، وكأن الإنسان هو الذى نماً وتم. فالشجرة إن لم تكن من الإرادة كما يقول هذا الفيلسوف فهى من الحياة وقد التقى منها ومن المسيح إنسانٌ حى وشىء حى؛ والتقيا على خلاف انقلبت فيه إلى حياة ذات إرادة، وإرادة ذات كبرياء، وكبرياء فى رعونة يختال بها جِذْعٌ خشبى غائر فى الأرض على جذع روحانى باسق فى السماء؛ وتتيه عشبةُ الطينِ على زهرة الفلك الأعلى. والكبرياء كانت من شرها أولَ ما تمرَّد به الشيطانُ على الله(٢) وأولَ ما لعن الله به الشيطان وحسبها من الشر أنها ذهبت بجميع حَسنات شيخ الملائكة (كان(٣) . . .) فهوى بعدها من لعنة الله فى أعماق لا تنتهى ولا يزال فيها طائراً إلى أسفل. . وما برحت هذه الكبرياء ثقيلةً على الأرواح الصافية الكريمة ولو كانت مما تحِقُّ له، ولو كانت من شجرة تحييها الشمس ويقوم على حفظها ناموس الكون، والمسيح لم يفرَّ إلى ظلها من حر بل إلى ثمرها من جوع؛ فلما أتاها بجوعه تلقّته بزَهْوها. قال لها بلسان قلبه العظيم: هأناذا! فقالت له: وهأناذه، أخرى غير التى تريد، ظل جائعاً وظلت خضراء تتموَّج لعينيه شبعاً ورِيّاً ما تستحى ولا تتواضع بجفاف ورقة منها تسقط عُذْراً عند قدميه. كانت فى غير حالته القائمة بروحه وكان فى غير حالتها القائمة بروحها، فكل ذنبها فى روحه هو وفى حالته هو وفى حسِّه هو، فاشمأزَّ منها فيبست ولعنها فماتت ورآها ظلاماً فأطفأ سُنَّتَها إلى الأبد. هكذا يفعل الروح الأقوى بالروح الأضعف حين يختلفان والمتكبر دائماً هو الأضعف وإن ظهر أنه الأقوى؛ فلو صدمتْه روحٌ عاتية بما فيها من بغضه وازدرائه لوقعت منه موقع أظلاف الفيل من النملة الضعيفة؛ فإن فوق كبرياء المخلوق ناموساً ثابتاً من كبرياء الخالق ما لجأ إليه مكسورُ القلب بكاسر قلبه إلا وضعه والله ثَمَّتَ موضعَ حبّة القمح تحت حَجَر الطاحون الضخم لا يُبقى ولا يذر.

وكنت أتكلم وكأنى مُرتَفِقٌ تحت جناح جبريل كما قلتَ وإن الكلام لينفذ إلى

(١) هو سيدو كليس كان قبل المسيح بأربعة قرون.

(٢) حين تكبر فأبى السجود لآدم. (٣) أى سابقاً.

دمْها مع أنفاسها فما أتيتُ على آخره حتى رأيتها قد اصفرَّت وارتاعت وقالت: ويلى منك، فهل أنت مسيح جديد؟ إنى لأسمع ألفاظك هذه وكأنى أسمعها من يوم بعيد لم يأت بعد ولكنه آت لأنه يتكلم ويقول بكلامه: أنا موجود وإن كنت بعيداً عنك. فأردت أن أخفِّف عنها فرفعتُ طرفى إلى خيمتنا وقلت: اسمعى يا شجرة التين. . فانفجرت ضاحكة وقالت: كم قلت لى أنت دُوَيهيَةٌ وزعمتَ أن هذا يسمونه تصغير التعظيم فأنت دُوَيْهِتان. فضحكت وقلت: أولستِ معى. .

لقد حلَّ ذلك اليوم الذى سمعتْه يتكلم فى الغيب، وآه من تلك الدويهية ومن كبريائها وفلسفتها. . آه من فتاة تقول لك فيما تقول: إن أُمى ولدت نفسى ونفسى هى ولدتنى فلا تَرْجُ أن تصيب فىَّ طباعَ أنثى وإلا ضَلَّ ضلالك أيها الحبيب. .

قلتُ: فماذا بقى من معنى «أيها الحبيب» إذن؟

فضحكت من عبوسها - وهى حين تتفلسف تُظَلِّلها سُحُبٌ من الفكر فتراها قد غامت فيها ولا يبقى لك أمل إلا فى وميض[1] من ابتسامها يلمع أحيانا كما تنظر للشمس من فَتْق فى السحاب يتمزّق ثم يُسرع فيلتئم - أتدرى ماذا كان جوابها؟ قالت: خُلقنا لهذا الحب من قبل يومنا؛ ولعلّ يومنا إذا جاء كان يوم بغض منك أو منى. قلت: فمعنى «أيها الحبيب» فى فلسفتك «أيها البغيض». .؟ قالت: كلا كلا. . لا أدرى، ولكنى أتكلم بلغة النطق؛ وفى ناموس الفهم الإنسانى لغةٌ غيرها وفى ناموس الأقدار لغةٌ غير اللغتين. فإنك لترانى ولكنى أرى فىَّ أخرى والأُخرى ترى فيها ثالثة. هذا أشعر به ولا أدرى كيف أصفُه فإن عبَّرتُ عنه بلغة النطق انقلب كلامى عن جهته فصار من كلام الموَسوسين والمَمْرورين والمجانين. أنا أُحسن الكلامَ مع السماء وأنت تحسن الفهم عن السماء، فحاجتى إليك هى أن تتكلم فى روحى وحاجتك إلىّ هى أن أتكلم فى قلبك.

أتستطيع أن تُلبسنى جلدك وتَخيطه علىَّ و. . فقلت: مهلاً مهلاً إنك أنت الآن لا تتكلمين ولا التى فيك بل تلك الثالثة. . وإذا كان استهلالُ كلامها سلخَ جلدى. . وهنا وضعت يدها على فمها وجعل يَغُتُّ[2] ضَحِكها ويتكسَّر على صلابة قلبها تكسُّر قِطَع البلور الثمين فى غير نظام ولا مَهَل.

(١) قلت: وميض: يقال أومضت المرأة: سارقت النظر ووميض: لمع لمعا خفيفا . كما فى القاموس .
(٢) قلت: يغت: يخفى الضحك كما فى القاموس .

ولما سكنتْ مما غَشيها قالت: أنت برهَمى؟ قلت: وهذه شرٌّ من الأولى فهل خطر لك أنى أعبد بقرة؟ قالت: وهذه شرٌّ من الاثنتين فقد انتقمت منى بلطف.. ولَكن ألاَ تعرف أن الحب فى رأى أكثر الناس كزواج البراهمة، إذا اقترن الرجل منهم بامرأة فقد أعدَّها للحرق إن بقيت بعده وللموت إن بقى بعدها؟ قلت: أعرف هذا فى عَقْد البراهمة وحَسْبُ فلا تَنْزُ بك الفلسفة نَزوتَها فلسنا فى النار ولا فى دخانها. قالت: وما تقول فى نار تعرفُها؟ ولفظتُ هذه العبارة بصوت خرج يرتجف كأنه جاذَبَ قلبها وفرّ إلىَّ فراراً؛ وأنزلتْ فى مقطَعها نبرة استفهام حلو رقيق يمازجه شيء من التوبيخ فى منتهى الظَّرف.

فأطرقتُ شيئاً وقلت: اسمعى؛ ما أنت محاطةٌ بست جهات بل بست علامات استفهام؛ وإن فلسفتك هذه جعلتك ما لا ادرى: اَلُغْزاً فى إنسانة أم إنسانة فى لُغز؛ وعلى أيِّهما فإن العمر يذهب فى فهمك وأحتاجُ بعد إلى عمر جديد فى حبك ولن تبعثنى فلسفتك من قبرى يوماً إذا سُوِّيت بجسدى الحفرة. لقد وضعك حسنُك فى طريقى موضع البدرُ يُرى ويحَبُّ ولا تناله يد ولا تَعلَق بنوره ظلمةُ نفس، لكن كبرياءك نصبتك نصبة الجبل الشامخ كأنه ما خُلق ذلك الخَلق المنتشر الوَعْر إلا لتدقَّ به قلوب المُصْعدين فيه وتهتزّ أجراسها اهتزازاً عنيفاً متصلاً فى حبال الأنفاس والزفرات. كونى من شئت أو ما شئت، خَلْقاً مما يكبُر فى صدرك أو مما يكبُر فى صدرى. كونى ثلاثاً من النساء كما قلت أو ثلاثةً من الملائكة ولكن لا تكونى ثلاثة آلام. انفُحى نفح العطر الذى يُلمس بالروح واظهرى مظهر الضوء الذى يُلمس بالعين ولكن دعينى فى جوّك وفى نورك. اصعدى إلى سمائك العالية ولكن ألبسينى قبل ذلك جناحين. كونى ما أرادت نفسك ولكن أشعرى نفسك هذه أنى إنسان.

أىُّ حبّ هذا؟ لقد امتُحنتُ منها بفتاة أبحث عنها فى النساء فلا أجدها وأبحث عنها فى نفسها فلا أجدها؛ وكل تاريخ هواها كالرِّحلة فى أغفال الأرض ومجاهلها[1]؛ يأخذ الرحَّالةُ رجليه بالمشى على قبر فى عَرض الصحراء ويكون له من الحَذَر فى كل بَادرَة عقل؛ ولا يزال يَلْفظُه مَجْهَلٌ إلى مجهل، ولا يزال يتتابع فى تلك الأرض التى تَغُولُ سالكيها[2] حتى يقطعَ إلى معروفها مُنكراتها جميعاً..

---

(١) الأماكن المجهولة والمغفلة.

(٢) تهلكهم ببعدها ومصاعبها.

الرسالة الخامسة
(أيام لبنان)

فجرُ الهوى من ثغرها البسَّامِ … مُتطايرُ اللَّمحات فوق ظلامى
رفَّت علىَّ ظِلاله وتنفَّست … بندَىَ الشباب على فؤادى الظامى
ذهبت همومٌ جرَتْ فى أسمائها … وأتت همومٌ ما لهن أسامى
فى حبها والحبُّ فى بأسائه … أهنا لأهليه من الإنعام
حسناءُ صوَّرها الهوى فى صورة … كادت تُعيد عبادةَ الأصنام
فى منظر الأقمار المحُ وجهها … وتُحِسُّ فى لمس النسيم غرامى
ولكهرباء الحب من لَحظاتها … سيَّالُها المتدافعُ المترامى
يَنساب فى مجرى دمى متلهباً … فكأنه تيار بحرٍ ضِرامِ
يا كهرباءَ الحب رفقاً إنما … هذى «الأنابيبُ» الضعَّاف عظامىَ
ذهب المنامُ ومن يُذَكِّرُهُ الهوى … قمراً فلا يلقى الدُّجى بمنامِ
يا ليلُ أنتَ صحيفةٌ ملء الفضا … ءِ وما بها سطرٌ من الأحلامِ
فى كل نجم من نجومكَ بَسمةٌ … وقفت تُشير إلى الهوى بسلامِ
وكأن أفْقكَ والنجومُ سطورُهُ … تاريخُ ما أسلفتُ من أيامى
مُتألِّق الَجنبَات مَشبوبُ الضيا … خَضِلُ الندى صافى الشمائل سامى
يا ليلُ أين الفجرُ أين زِمامهُ … أيامَ يُمسكه الهوى بزمامِ
أيام «لُبْنَان» وكانت ساعةً … غفرت ذنوبَ الدهر فى أعوام
غَفَل الزمان هناك من غَفَلاتهِ … ففررتُ للَّذات من آلامى
وقطعتُ من ثوب الشباب عِصابةً … وربطتُ من جُرْح الحياة الدامى
ومضيتُ أصعدُ ذِرْوَةً فى ذروةٍ … كالنجم مشتملاً علىَّ غمامى
فى كل مَنزلةٍ وكل ثَنيَّةٍ … يضعُ الهوى قمراً يضىء أمامى

وعلوتُ حتى عن أمانىّ الحيا ةِ وغبتُ حتى غبتُ عن أوهامى
وسموتُ فى أفقٍ يذوب نسيمه شغَفاً إذا اهتزَّ غصنُ قَوامِ
أُفُقٌ يُطلُّ على الحياة وهمِّها إطلالَ مغفرةٍ على الآثامِ
لُبنانُ فنٌّ فى الطبيعة قائمٌ دقَّتْ محاسنه على الأفهامِ
متكبرٌ حتى على إكبارها متعظمٌ حتى على الإعظامِ
قَممٌ تَغَطَّى بالسماء كأنها فى الكون أمثلة على الإبهامِ
شُمٌّ فوارِعٌ علَّمتْ أبناءَها عند الحوادث كيف رَفْعُ الهامِ
ومَدارجٌ تُنبيكَ مُنحدَراتُها أن الحياةَ مَذاهبٌ ومرامى
تركَتْ بنيها أينما حكمتْ بهم نَفَذُوا على الأسباب كالأحكام
وترى هنالك كلَّ شىء ناطقاً أن لا يعيش هنا سوى المِقدامِ
جَبَلٌ تمنَّع فى الطبيعة عزّةً ومهابةً كالناب فى الضرغامِ
يتقلَّب التاريخُ من أبنائهِ فى الغُرِّ بين فوارسٍ وكِرامِ
فالنُّورُ لم يَبْرَحْ على أرجائه من مَبْسَمٍ أو من فِرِنْد حُسامِ
جَبَلٌ إذا وصفوا الرواسىَ لم يكن أبداً لصدر الأرض غَيرَ وِسامِ
يا نَفْحَةَ الجنّات من تلك الرُّبى كم ذا يطولُ تلهُّفى وهُيامى
بينى وبينك بحر يَرْتمى من عين مهجورٍ وبرٌّ خِصام
لهفى على ريح الشآمِ ونظرةٍ من أرضها لهوىً هنالك نامى
أرضٌ بنوها الصِّيدُ كيف تَواثَبوا عَنَتِ الحياةُ لهم بكل مَرام
حملوا النُّبوَّة وهى روحُ بلادهم ومضَوا بوحى العزم والإقدام
فهُمُ بأىّ الأرض حلَّ نزيلهم قومٌ قضت لهمُ السما بمقام
أرضٌ كساها الوحى جواً عاطراً وبنى لها أُفُقاً من الأنغام
اللهُ زيَّنها بكل بديعةٍ باحتْ بأسرار من الإلهام
فهُنا يُريك الحسنُ صفحةَ شاعرٍ وهنا يُريك صحيفةَ الرسّام
والحسنُ مختلفُ المواطنِ فى الورى لكنما حسنُ الطبيعة «شامى»

الرسالة السادسة

تقول أيها العزيز: «فصفْها لى على حَقِّها[1] وصفها على هواك بما يُزخرف الهوى من كَذبه وانقلها إلىَّ من مرآتها نقلاً ووافنى عنها برسالة كليلة من ليالى القمر فى الصيف تتنفّس كلٌّ ساعة منها برائحة الفجر». آه ما كان لى ولهذا البلاء الجميل.. فإن عهدى بهذه النفس أنها مُصمِّمةٌ حكيمةٌ إذا فزعت تفزع إلى ضِرْسٍ حديد وإذا همَّت أمضت عزيمتها فما يَندُّ منها شىء إلا ضَبَطَتْه[2] وأحكمتْه؛ وإن عهدى بهذا العقل أنه نافذ دَهِىٌّ ذو حَرب وسِلم فى أساليب الحكمة والسياسة. ولكن الإنسان يُبتلى ثم يُبتلى ليعرف أن كل ما فيه إنْ هو إلا وديعة الغيبُ فيه؛ فما شاء الله نفع وإن كان سبباً من الضُّر، وما شاء الله ضرَّ وإن لم يكن إلا نفعاً؛ والأَسْباب كالعمر لا يملك الإنسان استمراره لحظةً واحدة وقد يستمر على ذلك ما يستمر.

إن وصفها لهمٌّ جديد وإنها الآن فى نفسى غير من كانت؛ فالكتابة عنها ضربٌ من العنَت، كالترجمة من لغة إلى لغة فلولا كان ذلك والهوى مُتَّفق؟ ولكن يا شمس السماء مُجِّى[3] من ريقك على هذا القلم حتى ينسج وشْيَه وزُخرفَه واجمعى فى هذه الصحيفة نور الابتسام وماء الدمع وأَخرجى منهما ما يخرج النبات من الضوء والماء زهراً وثمراً وورقاً أخضر.. وحطباً يابساً بَعْدُ..

أَمَا إنها فتنةٌ خلقت امرأة فإذا نظرتْ إليك نظرتها الفاترة فإنما تقول لقلبك إذا لم تأت إلىّ فأنا آتية إليك؛ خُلقت مقدرةً تقديراً كأن كل شىء فيها وضع قبل خلقه فى ميزان الجمال ووزُن هناك بأهواء القلوب ومَحابِّها. وكأنها بعد أن تم تكوينها أرسلت الملائكة فى دمها نقطة عطر فهى تَنفُح على القلوب برائحة الجنة. وهى أبداً تشعر أن فى دمها شيئاً لا يُوصف ولا يُسمّى ولكنه يجذب ويفتن فلا نراها إلا على حالة من هذين حتى ليظنها كلٌّ من حادثها أنها تحبه وما بها إلا أنها تفتنه.

---

(١) على حقيقتها. (٢) لا يفلت منها إلا أمسكته والضرس الحديد كناية عن العقل والرأى القوى.

(٣) قلت: يقال: مج الشراب من فيه أى رماه، ومجى: ارمى كما فى القاموس.

رشيقةٌ جذَّابة تأخذك أخذ السحر لأن عطر قلبها ينفذ إلى قلبك من الهواء؛ فإذا تنفَّستَ أمامها فقد عشقتَها.

وتراها ساكنةً وادعة أمام عينيك ولكن قلبك يشعر أنها تهتز فيه وتضطرب فلا يزال قَلِقاً نافراً يتململ.

أما أنوثتها فأسلوبٌ فى الجمال على حدَة؛ فإذا لقيتهَا لا تلبث أن ترى عينيك تبحثان فى عينيها عن سرّ هذا الأسلوب البديع فلا تعثر فيهما بالسر ولكن بالحب. وإذا كنت ذكياً فأضافت إلى ما فيها من بواعث الهوى إعجابها بك فقد أحكمتْ لك العقدة التى لا حلَّ لها.

ومهما تكن من رجلٍ باذخٍ فإنك بإزائها ترى كيف ينقاد جزء من الطبيعة لجزء من الطبيعة فلا براءةَ لك ولا مَخرَج من حبها؛ ومهما تكن من جبل شامخ فإنك تتهافت تحت أشعة عينيها كما تتدحرج جبال الثلج فى القُطْب إذا زاحَها عما حولها شعاع رقيق من أشعة الشمس تتنهَّدُ فيه نسمة ضعيفة.

وهى فى لونها ذاتُ بياض أسمر مَحمرٍ وضىءٍ يَغْتَرِقُ العينَ حُسناً؛ وكأن ائتلاف الألوان الثلاثة فيها جملةٌ مركَّبة من لغة النور والهواء والحرارة، معناها الجمال القوى الصحيح. هيفاءُ مُلتفَّةٌ لم يَهْبِط جسمها ولم يَرْبُ[1] تملأ قلبك كما تملأ ثوبَها. وتتمايل أعطافها فلو خُلِق غصنُ البان[2] امرأةً لمشى يتهادى فى مثل مشيتها. وتنظر نظرة الغزال المذعور أُلهِمَ أنه جميل ظريف فلا يزال مُستَوفزاً يَتَوجَّس[3] فى كل حركة صائداً يطلبه.. وتنفجر لعينيك فى حركاتها وكلماتها كما يتفجر أمام الظمآن ينبوعُ الماء العذب. وما رأيتها مرة إلا أحسست نفسى تُصوّرها تصويراً كأن الشمس والقمر قد صنعاها فى الحسن صنعة جديدة. وتنتحلُ هذه الظبيةُ أحياناً كبرياء الأسد فيكون ذلك منها فى باب الدلال مخاشنةً بين طبعى وطبعها تبثُّ بها فى الحب قوةً تبلغ قوةَ الافتراس فى أسد جريح.

تريد الهوى وتعرفه وتنفخ فى ناره وتُذكى[4] ضِرامها بما لا يخمد ولا ينطفئ

(١) لا سمينة فضفاضة البدن ولا هزيلة نحيلة.

(٢) قلت: البان شجر لحب ثمره دهن طيب، وحبه نافع للنمش والجرب كما فى القاموس

(٣) يخشى والغزال دائماً كالمذعور.

(٤) قلت: تذكى ضرامها: اشتد لهبها كما فى القاموس

ولكن. . ولكن لترى من كل ذلك كيف أحترق.

تلك هي أيها العزيز؛ من أيّ الجهات اعتبرتَها لا ترى أوصافها تنتهي إلا كما تنتهي أطرافُ الواحة الخضراء في رمال كالأُقيانوس الجافٍّ تقحمك المَتالف[1] وتبثُّ لك مصايدَ الموت في كل جهة، ولا يخرجك منها إلا أن يكون عمرك أوسع منها؛ ومع ذلك فلا تخرج إلا حيّاً نصفه موت أو ميتاً نصفه حياة. إن عاشقها المسكين في كل ما يناله من حبها ليمشي إلى الجَدْب[2] بخطوات خُضر تُعَدُّ عليه واحدة واحدة، فههنا نبع يروى وهناك روضةٌ تتنفس وثَمَّ سَرْحَةٌ تَفيءُ بظلها، وماشئت من متاعٍ أحسنَ ما تنظر ومن رَوْح أجملَ ما تبتغي ومن نعمة أبدعَ ما تتحفّى بك النعمة؛ ثم تنتهي من الواحة لأنك كنت تندفع ولا تُحس ويُسارُ بك ولا تدري؛ وتنتهي بعد الفضاء الجميل الأخضر إلى ذلك الفضاء المخيف الأبيض بياضَ عظام الموتى. . فضاءِ الصحراء المهلكة التي تقول لك أولَ ما تتلقاك: ليس من يُحس بك ههنا فحيث شئت فمت. .

كانت والله قَدَراً مقدوراً لو علمتُ كيف تنتهي لاتقيتُ كيف بدأتْ، ولكني جئتها وأنا أقدِّر أن أراها كما هي وأدعها كما هي فإذا القَدَر مخبوء فيها وإذا هو قد طلع عليَّ في ألحاظها وإذا أنا أراها فلا أدعها. وكان طريقي إليها بين رؤيتها وتركها، أبدأ وأعود، فلما تخطيتُ أولها لم أر لها آخراً ولما بدأتُ عدلتْ بي إلى الناحية التي كنت أجهلها فلم أدرِ كيف أعود.

وهي شاعرة تغمُر أفقاً واسعاً بأشعة خيالها، ولو أن نجمة سألت الله أن يخلقها امرأة فتنزلَ على الشعراء بوحي السماء وخيال السماء وأسرار السماء لكانتْها. غير أنها لا تحسن عربية الكتابة الفُصحى فإذا كتبت وقليلاً ما تكتب[3] اختَبَطَتْ في مثل البحر اللُّجي ففرَّت إلى الساحل ورقصت هناك على رَشاش الموج. وهي تألمُ لذلك النقص فيها وما أطرفَ ما تراه في سببه إذ تقول: إن المصري والسوري ومن يشبههما قد بلغوا من ضعف القومية التاريخية بحيث يريد

(١) تورطك في المهالك. (٢) قلت: الجدب : الأرض الغير مخصبة .

(٣) يستعمل هذا التركيب للندرة والعرب يستعملونه في نفي أصل الشيء وفي القرآن الكريم: ﴿فقليلاً ما يؤمنون﴾ [البقرة: ٨٨] أي لا يؤمنون أصلا وهو إعجاز عجيب لمن يتأمله.

أكثرهم الكمال لشخصه لا لتاريخه، ولنفسه لا لأمته؛ فينسلُّ أحدهم من تاريخه ويغامر فى آداب أمة حية كالفرنسية والإنجليزية ويستفرغ فيها كل همه فيدرك فى خمس سنوات ما لا يأتيه به التاريخ المصرى أو السورى فى خمسين سنة لو بقى فى أمته وادعاً يترقب نُضج تاريخها. والشرقى إذا خرج من الشرق أحسَّ أنه ترك وراءه بلاد القبور والمدافن والجثث المحنَّطة واستقبل بلاداً أصبحت الطبيعة فيها أسرع من أهلها فى العمل للحياة والأحياء فهم يخدمون نواميس الكون لتخدمهم على الأرض لا فى السماء. وكانت إذا انتهت إلى مثل هذا قلت لها إنك لتتكلفين أن تجعلى للاَّنهاية حدوداً أربعة.. بل أربعةً ذات قياس ومساحة وإلا فابتلى أوربا بمثل ما بُلى الشرقُ منها أربعين سنة فى جد السياسة وهزلها فإنك والله لا ترين منهم يومئذ إلا الزنوج البيض.. وكانت تقول ما أعجزنى فى أجناس الكتب إلا كتب اللغة العربية؛ لقد أحضرتُ شيخاً يُدارسنى كتاباً منها فكانا كتابين.. الذى أراه هو الذى أسمعه والذى أسمعه هو الذى أراه. ثم تُغرقُ فى الضحك وتقول فى كلام ظريف كأنه يضحك ضحكاً آخر: فأنا والله فى حاجة لإتقان هذه اللغة إلى عمامة وعشرين سنة فى الأزهر..

قلت لك إنها شاعرة تملأ سماءً من السموات فتكاد لا ترى فيها من جهات الأرض شيئاً[1] كأنما تركت المادة الإنسانية فى أبويها وخرجت من ذلك الحطب والورق.. مخرجَ الزهرة الناعمة؛ بنيَةً من اللون وجسماً من العطر ونسيجاً متماسكاً من الشعاع. خرجت عاطفة مولودة تَكبَر وتنمو لتبلغ فى العواطف سنَّ شباب القلب؛ لا يتصل بروحها شىء إلا نبت واخضرَّ ثم نوَّر[2] وازهر كأن طبيعة الجمال خبأت فى قلبها سرّ الربيع. وهى الصافيةُ كرقة النسيم والناعمةُ كملمس الماء والضاحيةُ كطلعة الشمس؛ فإن غضبت بدَّلت النسيمَ قَيظاً[3] والماءَ ظماً والشمس الطالعة غيماً يلفُّ نهارَ الحب فى مُلاءَة ليل أسود.

ولا يستخرج عجَبها شىء كما يعجبها الكلام المُفَنَّنُ المشرقُ المضىء بروح الشعر فهو حلاها وجواهرها وما لسوق حبها من دنانير غير المعانى الذهبية. فإنها

---

(١) كناية عن الطباع الحيوانية النفسية.

(٢) نوَّر: أخرج النوار.

(٣) قلت: القيظ: صميم الصيف والمعنى الحر الشديد.

لا تبايعك صفقةَ يد بيد ولكن خفقةَ قلب على قلب.

وما عسى أن أقول فى فلسفتها واهتدائها إلى موضع السر من الأشياء ونزولها وراء الحُجَّة إلى الأعماق البعيدة التى تغوص الحجةُ فيها واستبانة المُشْكِل باللَّمح وتقليب المعانى فى أصابعها كأنها ملقَّنَةٌ ما تحاوله؛ وأخذها فى سبيل البرهان حين تجادل مأخذاً لا يُقامُ له، وإظهار خيالها البديع فى معانٍ لامعة كأنما تتدلَّى عليها الشمس. فلو كنا نقول بالرَّجعة[1] لقلتُ إن (أرسطو) قد رجع بفكره الجبّار إلى هذه الدنيا ليمارس حياة الأنوثة ويتمَّ امرأةً كما تم من قبل رجلاً فينتظم كمال الجنسين فى نفسه.

على أن فلسفتها هذه قد جعلت من بعض قُواها ذلك الجمود الذى تستعين به على الحب «جمودَ إحساس الكتُب..» حتى ملأت نفسى بمثل البحر مِلحاً ومرارة.

الجمال هبةُ الله فليس لامرأة فيه عمل. ولكن العجيب أن أكثر ما يكون من عمل المرأة إنما يكون فى إفساد هذه الموهبة كأن الجمال غريبٌ حتى عن صاحبته. تفسدها بالجهل إذا كانت جاهلة وتفسدها بالعلم إذا كانت عالِمة وتفسدها بلا شىء إن كانت هى لا شىء..

على أنها كانت تزعم أنها تبغض الفلسفة وأهلها وتقول: ينبغى أن تتحول الفلسفة إلى شعر كالتراب نُعالجه ليستوىَ مخضَراً فإذا هو لم يُنبِتْ فاردمْ به المستنقعاتِ واملأ منه الحُفَر وافتح فيه القبور، والفلسفة وإن كانت من ضرورات الحياة والأحياء ولكنها عند بعض الناس أعجب شىء وعند آخرين شىء عجيب وعند الشعراء لا شىء عجيب.. أعرفُ العلم والمنطق ولكن الطباع غير العقول فمن كان فى سنّ العقل استطاع أن يحمل فى فلك رأسه السموات السبع والأرض ومَن فيهنّ وذلك هو الفيلسوف فى سَمْته وهيبته ووقاره كأن فيه مكتبةٌ كبيرة أو كأن فيه ثِقَلاً خاصاً..؛ ومن كان فى سنِّ الطبع فلا يعرف إلا ما يميل إليه طبعه، فإن يكنْ هناك منطق وعلم فهما فى كيفية إيجاد الميل فى نفسه ثم فى استخراج

---

(١) مذهب يقول به الهنود وغيرهم فيزعمون أن النفس ترجع إلى الدنيا فى جسد آخر لتستوفى كمالها.

اللذاذة[1] الروحية لنفسه من هذا الميل ثم فى تهيئة الاستمتاع من هذه الروحانية بكل ما فيها لكل ما فيه.

هذا هو رأيها ولكن لا تنسَ إنه رأيها الفلسفى.. وإنه لن يكون لها رأيا إلا إذا كان لها بَدِيًا[2] فلسفةٌ قد جعلت من طباعها «جمودَ إحساس الكتب»؛ وههنا المصيبة فإنها إن عَمِدَتْ إلى غيظك اختبأت نفسها فى كتبها وأوراقها ورأت هذه الكتبَ والأوراقَ دنيا غير الدنيا لها أشخاصٌ غير الأشخاص. أما بين الكتب والأوراق فهى تحمل فى رأسها السموات السبعَ والأرضَ فكيف تشعر بك إذا أنت وحدك وقعتَ من السموات السبع والأرض..؟

ولكن هل أنتَ إلا أنتَ وحدك؟

(١) قلت: اللذة: نقيض الألم وجمعها لذاذا ولذاذة كما فى القاموس.
(٢) أى قبل ذلك أو كما يقول الناس (أولا).

الرسالة السابعة

نالتْ منى رسالتك يا عزيزى وما كنتَ ظالماً ولقد ظلمتَ. جاءتنى سطورك جُمَلاً جملاً فانصبَّت على قلبى انصباباً فغشيَتْه من حروفها بموج أسود كالظُّلَم. لك اللهُ أن تحسبنى هالكاً وتقول إن روحى محمومة بتلك الفتاة وإنى فى حاجة منك إلى علاج مُر؛ إلى بضع نصائح من الكينا..

فأما إنى محموم بها فلا وما أبعدْتَ؛ ولكن هى كانت أشبه بالهذَيان فى الحب، وأن الدهر ليحَم[1] مراراً عدةً متى ركبته الأقدار الملتهبة فإذا هو حُمَّ جاء من هذيانه نابغةٌ يهذى فى رجل أو امرأة. وكان من علامة نبوغ تلك الفتاة أن فيها من برد الدنيا وسخونتها.. فيها والله برد شديد ويكفى أنه برد الفلسفة..

قالوا: جلَّت الحقيقة أن تكون البشريةُ محلا لتلقيّها؛ وأقول جلَّت مرة أخرى أن تكون المرأة هى هذا المحل؛ فما للمرأة الجميلة والفلسفة؟ اللهمَّ لا تبتلِ بها من النساء إلا كلَّ ذات وجه غَضِنٍ[2] لا يضره ولا يضر أحداً أن تزيد فيه كُربةٌ أو عُقدةٌ أو مسألة حسابية..

ولكن ما أجمل الحقيقةَ تُرسل أشعتَها وألوانَها فى قلب الجميلة فتمتهدُ لها فيه أرضاً من الشعاع ثم تهبط من السماء الكبرى إلى هذه السماء الصغرى جمالاً فى جمال وحقيقة على حقيقة وشعراً على شعر ومعنى يوحى به إلى من هى تفسير له. تلك حقيقة الجمال الذى لا يُفهَم إلا بمثال عليه من امرأة؛ وإن من النساء تفسيراً بديعاً لهذه الحقيقة، ومنهن تفسير ناقص، وبعضُهن مغالطةٌ فى التفسير، وبعضهن مسخٌ، وبعضهن كالتضريب والشطب لا يفسر شيئاً ولا يصحح شيئاً ولكن يمحو ويطمس..

سآتيك بها الآن من جهة الشعر وقد وصلتُ جناحها بجناحى بعد مقدمها إلى مصر بأيام وخرجنا مُتَنَدّيَين[3] ذاتَ صباح فى طريق تبعثرتْ فيه الشمسُ على

(١) قلت: حم : قضى كما فى القاموس .

(٢) الذى فيه تكسر وتجعد من الهم والكرب و.. والقبح أيضاً..

(٣) متنزهين غبَّ الندى وهى كلمة استعملناها قياساً ولا يوجد فى كتب اللغة.

الندى وعلينا. كانت هى صبحاً فى ذلك الصبح وقد وافت كعادتها متكسرة وللفتور مَسٌّ فيها؛ فتورها النسائى[1] البديع الذى ينبئك فى لطف أىٍّ لطف أن عواطفها تُبعدك عنها ولكن بشرط أن لا تبتعد؛ فتور فى الجسم تظهره الأنوثة التى نراها لنطَّلع منه على سر الأنوثة التى لانراها. وفتور فى اللحظات تدل به على أن فى قلبها منك شيئاً تحب أن لا يظهر لك وتحب كذلك أن لا يخفى عليك..

ومشينا بين الجمال المنظور وبين الجمال المعقول وهى تجمعهما فى شخصها ومعانيها على حين أن الطبيعة لا تكاد تُرضيك من هذه الجهة إلا إذا عرضت لك ألف شىء جميل. ثم فِئْنا إلى روضة على شاطئ النيل يسافر النظر فى أرجائها وتتموَّجُ للعين كأنها بحر أخضر تهتزُّ عليه هنا وهناك أمواجٌ ملونة من الزهر.

وقلتُ: فلأكنْ آدمَ هذه الجنة اليوم. قالت: ثم تخرج منها كما خرج.. قلت: فإن الخروج لا يأزفُ إلا عند غروب الشمس «كقانون المجلس البلدى».. فضحكت وحضرتْها النفسُ الثالثة[2] ثم مدت عينيها الذابلتين فى شواطئ ذلك البحر الأخضر وقالت: ألا تظن يا آدم الصغير أن إدراك الجمال الطبيعى فى الأرض هو بقيةٌ فينا من نفسية آدم الكبير لَدُنْ كان فى السماء وقد ورثناها عنه؟ قلت: لا أظن ظناً بل أنا مستيقن؛ فإننا طُردنا من الجنة ولكنا استرقْنا منها قدرَ ما وسع خيالُنا، فإدراك الجمال فى أى أشكاله وبأى طُرُقه إنما هو متاعُ الروح الإنسانية على طريقتها الأولى فى عهدها الأول. إن هذا الجمال لم يُخلق إلا للحسِّ والتخيل فهو كلام بين السماء وباطن الإنسان. قالت: فأنت الساعةَ تكلمك السماء؟ قلت: وتقول لى.. قالت: يا ويحى ماذا تقول لك السماء؟ قلت: فإنها تقول ما لك منصرفاً عنى بمَلَكٍ من ملائكتى ونسيتَ حتى الشمس فلم تنظر إليها؟ قالت: وجوابك؟ قلت: جوابى هو أن بعض الأسرار الإلهية يُبحثُ فى العلم عنها وبعضها يكون من الجلال والإشراق والسموّ بحيثُ يبحث فيها هى عن العلم؛ فالسر الكامن فى هاتين العينين وفى هذا التكوين وفى هذه الطلعة هو الذى أبحث فيه عن علم قلبى. قالت: أنت شاعر يُعَدُّ قلبك شيئاً عجيباً، وكثيراً ما أحاول الابتعاد عن ألفاظك. قلت: ولِمهْ؟ أيكون فيها أحياناً صوتُ شفة

(١) يظن بعضهم أن النسائى غلط وصوابها النسوى وكلاهما صحيح والأولى أفصح أحياناً.
(٢) مرَّ تفسير ذلك فى الرسالة الرابعة.

يمسُّك؟ فسكتت وجعلت تَنْكتُ الأرض. ومضيتُ أقول: إن الجمل يَستروِحُ الماء[1] مَسيرةَ ميل وإن بعض الحيوان يحمل إليه الهواء رائحة ما يخشاه أو يحبه فكيف لا تحمل إليَّ ألفاظك عطر خديك وشفتيك فتستحيل ألفاظي كلها قُبُلات؟ إن السائل المسكين حين يدعو لمن يُحسن إليه يقبِّل يده بألفاظ الدعاء لأن كلماته لا ترتفع إلى السماء إلا بعد أن تمسَّ هذه اليد الكريمة المحسنة من كل لفظة دعاء بقبُلة شكر؛ والمحبُّ حين ينظر فى وجه من يهوى نظرات كالألفاظ وحين يتكلم بألفاظ كالنظرات.. وهنا لمست كتفى وانتهضت وقد أشارت إلى زهرة حمراء كوجه المستحيى ثم مشت إليها فاقتطفتها ورجعت؛ فعلمت أن الكلام كان سقطة منى فتداركتُه وأردت أن أقلبه عن جهته ولكنها تنهدت ثم قالت: ما أحببتك شخصاً بل شعراً ولا إنساناً بل فكراً، ولولا أسباب القدَر التى باعدت ذاتَ بيننا.. وأخذ كلامها يرقُّ ثم يرقّ حتى خرج من معانيه كلام لا يُتَلقَّى إلا بالشفاه، وخُيِّل إلىّ أن نسيم الروضة يرتمى عليها ليتخطَّف تنهدها فجعلتُ أتخطف هذا النسيم وكأنى لا أتنفسه بل أشربه شرباً.

فى تلك الساعة ذكرت هى الشعر وقالت: إنه يُخرجنا الآن من حدود العمر الأرضى؛ فإن فى هذا العمر ساعات لا تُحسَبُ منه إما لأنها أبدعُ وأجملُ فلا يلائمها، وإما لأنها أقبح وأسخف فلا تلائمه؛ أفتُراها أقبح وأسخف..؟ قلت: يا شاعرتى العزيزة إن اللغة أيضاً تخرج من حدود الأرض أحياناً فهى فى مثل هذه الساعة فى مثل هذه الروضة فى مثل هذه الجميلة لا تؤدِّى إلا معنى الجمال والحب. أما الأقبح والأسخف فلا يدخلان هنا إلا بعد أن نخرج نحن ويدخل غيرنا..

قالت: يا لك من «عقل جميل» كما يسمِّى الفرنسيون ظرفاءهم. ثم تناولت من المَثْبَنَة[2] فى يدها أنبوب قلمها الرصاصى المصنوع من الذهب وأخرجت دفتراً صغيراً. وغمست سنَّ القلم فى ثناياها وفكرت لحظة ثم غمسته ثانيةً ثم كتبت فى طُرّة الصفحة هذه الكلمة «الشعر».

---

(١) يشم رائحته الخاصة فيه إذ خلق للظمأ.

(٢) المثبنة: كيس تحمله النساء تضع فيه بعض أداة الزينة.

ونظرت إليَّ باسمة وقالت: خذ هذا القلم واكتب كلمة صغيرة فى الشعر لأنقلها إلى الفرنسية فى مقالة لى..

آه لو أن الكهرباء اجتذبت القلم من يدها ما كانت أسرع منى فى اختطافه. وجعلتُ أغمسه فى شفتىَّ مرةً بعد مرة ولا أكتب شيئاً وهى تضحك وتقول: ما لك لا تكتب؟ فأقول: هكذا اعتدت فى المدرسة وكنت بليداً..

ثم كتبتُ ولكن بعد أن خالط فمى طعمُ الرصاص من كثرة ما غمستُ القلم.. وكتبتُ وأنا أشعر بأنفاسها وعطرها ومعانى لحظها يتحولْنَ فى نفسى إلى كلمات.

ما هى العاطفة المهتاجة فى نفس الإنسان اهتياجاً لا يُريه الحياةَ أبداً إلا أكبرَ أو أصغرَ مما هى؟

ما هو المعنى الساحر الذى يأتى من القلب والفكر معاً ثم لا يأتى إلا ليُحدِث شيئاً من الخَلق فى هذه الطبيعة؟

ما هو ذلك الأثر الإلهى الكامن فى بعض النفوس مُستكناً يتوثب بها ويحاول دائماً أن يعلو إلى السماء لأنه غريب فى الأرض؟

وما هو الشعر؟

هذه الأسئلة الأربعة يختلفُ بعضُها عن بعض وينزع كل منها إلى مَنزَع ولا جوابَ عليها بالتعيين والتحديد فى عالَم الحس لأن مَرَدَّها إلى النفس والنفسُ تعرف ولا تنطق؛ وشعورها إدراك مخبوءٌ فيها وهى نفسُها مخبوءة عنا. ولكن العجيب أن كل سؤال من هذه الأربعة هو جواب للثلاثة الباقيات؛ فالعاطفة هى ذلك المعنى وهى ذلك الأثر وهى الشعر. والشعر هو العاطفة بعينها وهو الأثر وهو المعنى؛ وهلّم جراً.

سبحانكَ يا من لا يقال لغيره سبحانك. خلقتَ الإنسان سؤالاً عن نفسه وخلقتَ نفسه سؤالاً عنه وخلقتَ الاثنين سؤالاً عنك. وما دام هذا الإنسان لا يحيط به إلا المجهولُ فلا يحيط به من كل جهة إلا سؤالٌ من الأسئلة؛ ولا عجب إذن أن يكون له من بعض المسائل جوابٌ عن بعضها.

هذه هى الطريقة الإلهية فى دقائق الأمور، تُجيب الإنسان الضعيف عن سؤال بسؤال آخر.

ولقد أكثروا فى تعريف الشعر وجاؤوا فيه بكل ألوان القول. ولكن كثرة الأجوبة جعلته كأنه لا جواب عليه. بالغوا فى تقريبه إلى الروح فأجْرَوا فى حدّه كلَّ عناصر الجمال والفضيلة ودلوا بالخيال على حقيقته إذ رأوا أنه لا يدل على حقيقته إلا الروح وحدها وهى غامضة فهو غامض وتفسيره فى مئة تفسير.

الشعر وراء النفس والنفس وراء الطبيعة والطبيعة من ورائها الغيب؛ فلو جمع ما قيل فى الشعر لرأيته يصلح فى أكثر معانيه أن يقال فى النفس ثم لرأيته مفهوماً من جهتنا وغير مفهوم من جهته. وما الشعر إلا أول المعانى المُبهمة والدرجةُ الأولى من سُلَّم السماء الذاهبةِ إلى عرش الله؛ وهو كذلك أولُ ما فى الإنسان من الإنسانية.

فى هذا الكون مادة عامة يسبح الكونُ فيها وتنبعث من قوة الله وإرادته وهى دائمةُ التركيب والتحليل إيجاداً وفناءً؛ وما أرى الشعر إلا تأثير هذه المادة فى بعض النفوس العالية الكبيرة التى تصلح أن يسبح خيال الكون فيها.

بهذه المادة تمتزج نفسُ الشاعر بكل ما تراه؛ ومن هذا الامتزاج يتكون الشعر. فإذا أردتَ أن تتحقق ذلك فانظر إلى نفس الشاعر العظيم تمتزج بالجمال الرائع فى نفس الجميلة، وبالحب فى نفس الحبيبة، وبالطبيعة فى المعنى الطبيعى؛ وانظر إليها حين تتصل بأسباب اللذات والآلام؛ حين تُثيرها اللحظةُ والابتسامة، ويهيجها الصدُّ والإعراض، ويحزنها المحزن ويسرّها السار؛ حين تخترق بالفكر حجابَ هذه الإنسانية وتَثِبُ بالعاطفة فوق الطِّباق العليا وتستمدُّ من الشعلة الأزلية لوناً من ذلك الضِّرام الذى اشتعل به فى أصل الخلقة كلُّ كوكب يتلهَّب.

ما أشقى نفسَ الشاعر؛ فإنها لسموِّها تجهل ما هى من هذا العالَم فلا تزال تمتزج فى أرضنا بكل ما يحزنها ويسرها لتعرف ما هى؛ ولن يكون الشعر العالى أبداً إلا التقاءً بين نفس سامية وحقيقة سامية. ومن ثَمَّ كان الشاعر العظيم يُحب ويُبغض ويضحك ويبكى ويرضى ويغضب، ولا يحسُّ من كل ذلك وما إليه إلا

السماء تحكم من داخله على الأرض.

وعلةُ شقائه هى نفسُها علةُ سروره بشعره وأن نَثرَ هذا الشعر من عينيه بكاءً ودموعاً، وأن انفجرَ به أحزاناً وآلاماً قاتلة.

كل النوابغ لا يُرضيهم إلا أن يرتفعوا فإن من كان له جَناحان للطيران لا يُسر إلا إذا طار؛ وما جناحا الطائر إلا كتابان من الله يملّكه فى أحدهما على الشرق وفى الآخر على الغرب؛ بَيدَ أن الشاعر لا يُرضيه أن يرتفع عن الأرض وحدها فإن خياله لا يقع إلا ساجداً عند عرش الله؛ وذلك سبب آخر من أسباب شقائه فى الدنيا، فأيمُّا شرٌّ مسَّ كبرياء روحه وأمسك من جناحيها رأيتَ أثره فى نفسه الرقيقة وكأنما صدمه الصدمةً ترمى به من فوق السماء إلى الأرض فى سقطة واحدة.

يا للعجائب إن سرور الشاعر الملهَم سرورُ نفسه وحدها ولكن حزنَه حزنُ العالَم كله.

قيل فى أحد القديَّسين إنه ما وجد السبيلَ إلى الكمال الإنسانى الأعلى ولا استطاع أن يكمل حتى كانت له نفسٌ شاعر عظيم فى جسم فقير بائس محزون، فضَربَ الله بتلك النفس على هذا الجسم وبهذا الجسم على تلك النفس واستضاء منهما القمرُ الإنسانى فى ليل حالكٍ من سواد أحزانه وهمومه.

فواهاً لك يا شعر الشعراء؛ أنتَ النقصُ كلُّه مع لذاتِ الدنيا وأنتَ الكمالُ كله مع آلامها. «انتهى».

واستوعبتْ هذه الكلمة يا عزيزى فى دفترها الجميل عشر صفحات. فعدَّتها واحدةَ واحدة ونظرت إلىَّ أظرفَ ما رأيتها ثم شكرتنى وقالت: آه ماذا قالت؟ لقد كنتُ أكتب وهى تُدبر فكرها فى اختراع بديع لمكافأتى.

فكِّر أنت أيها الصديق. أحسبك تسمع الآن صوتَ النقد اللؤلؤىّ الثمين؛ صوت عشر قُبُلات.

كلاَّ كلاً لقد كذب عليك الحسن وكذب عليك القمر. قالت.. لم يبق إلا عشر دقائق.. وانفلتَت ضاحكةً ونهضت لا تلوى.

ومِلء شُعاعِ هذا السيفِ قتلٌ ومِلءُ جمالِ هذا الحسن ذُل
ولولا سَطوةُ الأقدارِ فيما يُحب الناسُ كان الناسُ مَلّوا
فإن كثُروا يقلُّوا كى يَعودوا كِثارا؛ ثم إن كثروا يقلوا
مسائلُ ما لها حلٌّ ولكن إذا نُسيَتْ ففى النسيان حلُّ

وسأنسى يا عزيزى.. سأنسى!

***

الرسالة الثامنة

وادى هواكِ كان مَطلعَ شمسهِ يُلقى على يأسى شُعاع أمانى
وكأن هذا البدرَ فى ظَلمائه يَدُ راحمٍ مَسَحتْ على أحزانى
وكأن النجم أفقه فى ليلها ذكرى وعودِكِ لُحنَ فى نِسيانى
يا ظبيةَ الوادى الذى نَبت الهوى بِشراَهُ بين الزهر والرَّيحانِ
واديكِ من طول التدلل قد بدا شبَبَهُ القدود به على الأغصانِ
وكأنَّ طِيبَ نسيمه قد مَسَّ من شفتيكِ موضع قُبلةٍ وأتانى
هو جَنَةٌ كلُّ النعيم بارضها إلا رضاكِ؛ فذاك من نيرانى
دانٍ وما يدنو؛ بعيدٌ ما نأى يا شَدَّ ما يُضنى البعيدُ الدانى

****

أنا مَن علَمتِ فَتىً كأنَّ مَهَزَّهُ فى الرَّوْعَ مسنونُ الغِرارِ يمانى
كلُّ الحوادثِ حُمرُهنَّ وسُودُها فى صفحة الأيامِ من ألوانى
نفسى من المَلأ العُلى وَسجيَّتى تأبى علىَّ مَذلةَ الإنسان
ولقد أُراعُ إذا الحاظكِ لامستْ قلبى كأنى فى هواكِ اثنان

****

الحسنُ ألوانٌ يُمازِجُ بعضها بعضاً لتصوير الهوى الفتَّان
وأرى الجوى والسحر والإيمانَ قد مُزِجَتْ فمنها هذه العينانِ

وآه لو رأيت عينيها أيها الصديق تَغزِلان غَزل السحر خيوطاً خيوطاً تَلتَمعُ واحداً من شعاع الحرير فى واحد من شعاعِ الشمس. آه لو يَتبيَّن لك مكْتومُها فى بعض نظَراتها الساجية الطويلة التى تَغْفُل فيها عن كل حذر وتُرسل فيها كل خواطر الحب. وتمدُّها إليك وكأنها تقول خذ هذه النظرة وانظرنى أنت بها لتَطَّلعِ

على ما في قلبي. ثم تُرخيها بفتور ليِّن كأنما تُصارحك أنها سَئِمَتْ مقاومة فكرها وتريد أن تميل إلى صدرك ولو بلحظة من عينيها. . كل شيء فيها من نتائج فكرها إلا تلك النظرات فإنها وحدها نتائج قلبها.

تُنكر عليَّ أيها العزيز وصفى إياها بالفلسفة ونعتها بالذكاء النادر والشِّعر العجيب وتقول: «إن هذا من سحرها فيك وإنها لو بلغت مبلغاً مما وصفتَ أو دونه لتوكَّدتْ بينك وبينها علائقُ من تحت النفسِ ومن فوق القلب ولكنك تصفها بما لا يَتصوَّر فى وهم ولا يَهْجِسُ فى ظن إلا وهمَكَ أنت وظنَّك أنت لأنك أنت. .».

فوالله ما كان أمرُها على ما رَجَمْت[1] وأنها لأبلغُ ذاتِ لسان وأبرعُ ذاتِ فكر وأروعُ ذاتِ نفس؛ ولو كنَّا سليلَى أبُوة[2] ما شهدتُ لها بأكثر من هذا حرفاً، ولو كان دمى من أعدائها ما نقصتُها من هذا حرفاً؛ وعَلِم الله ما أُبْغضُ فيها إلا هذه التى أشهدُ لها. . ولو أن الله مكَّنها من لغة كتابه الكريم لَغُصَّ[3] منها فى هذا الشرق العربيِ كلُّ كاتب وكاتبة غُصةً لا تُساغ ولا تتنفَّس.

وإنى لأكتب إليك رسائلى هذه والقلبُ يَنْفُضُ فى أضعافها[4] ما لو قرأته لَوَرَدَ عليك من أضواء المعانى فى جمالها وحبها وأوصافها ما يملأ نهاراً بين صبحه ومغربه يبدأه بشمس ويختمهُ بقمر.

لقد كنت إذا جاش بى حبُّها وثار منه ثائره فحاولت أن تَربطَ على قلبى وتُثَبِّتَ هذا الفؤاد القَلِقَ؛ جاءت بكلام نَضِرٍ تَنبت منه السلوةُ فى الحب القفر الذى لا يُنبتُ شيئاً؛ وجعلت الملائكة تنزل فى العُشِّ الذى بناه الشيطان لنفسه فى القلب وعَشَّشَ فيه؛ فلو أن كل حبيبة مثلها وكل محب مثلى لكان الحب تغييراً فى الإنسانية ولما احتاج الناس إلى قوانين وملوك ولكن إلى حبيبات وإلى حب.

إن الرذيلة واحدة ويتعدَّد أهلُها فمهما كَثُروا ألوفاً وملايين فهم واحد فى المعنى إذ يتلو كل منهم تِلْوَ صاحبه ويَقْتاسُ به فكأنهم صورٌ متكررة لأنهم فى

(١) أى ظننت بالغيب. (٢) أخوين من أب واحد.
(٣) قلت: الغصة: مفرد وجمعها غصص وهى مااعترض فى الحلق فلا يبين بها الكلام. كما فى القاموس.
(٣) بين سطورها وحواشيها.

الرتبة المنحطة كالنبات تُخْرِجُ الحبةُ منه ألف حبة مثلها لا تمتاز واحدةٌ من واحدة؛ ولكن كل من قام بفضيلة فهو فضيلةٌ قائمة بنفسها، فمهما قلَّ الفضلاء فهم كثيرون لأنهم فى الرتبة العُليا ولأنهم وحدهم الناس. فلو صحَّ الحبُّ وأطَاقَهُ أهلُه وصبروا على ما يَحزُّ فى الصدور منه وتَوَجَّرُوا العلاجَ المُرَّ[1] إلى ساعة الشفاء لكان كل مُتَحابَّيْن عالَماً قائماً من اثنين لإنشاء عالَم لا يُعَدُّ من صفات الفضائل وأنواعها.

كانت تقول لى: إن القلوب الضعيفة هى التى تصدأ فى فكرة واحدة تُلحُّ عليها حتى تتأكَّل صَدَأً ثم تتفتَّت؛ فإذا حَدَثَتْ عليها الحادثةُ انكسرت ولم تَقُمْ لها، وبقيتُ زمناً طويلاً فى الهموم حتى تتعب الحوادث والأقدار المختلفة فى أيام تتصرَّم بعد أيام إلى أن تجمع من حُطام القلب قلباً متحطماً.

ولكن القلوبَ القويةَ الصارمةَ ذاتَ الصدور الجريئة الواسعة تكوِّنها القُوَى المختلفة من العمل والفكر وعدم المبالاة على هيئة تجعلها مَرِنةً فى صلابة فهى تلتوى ولا تنكسر، وما أسرعَ ما ترجع كما كانت إذا لوتْها الخيبة أو نَجَمَتْ لها قاصمةٌ من الحوادث التى هى مَطَارِقُ القلوب لا تضربُ إلا عليها ولا تحطم إلا فيها.

أقول لك «عدم المبالاة» فافهم عنى فإنى أريد أن تحفظَ هذه الكلمة وتَعِيها من بَوَادى هذا الحب إلى تَواليه إلى أعقابه[2]. إن عدم المبالاة يكون فى بعض الأحيان وفى بعض الأمور هو كلُّ ما تكلفنا به الطاقةُ البشرية من المبالاة..

ثم تقول: إنما أنتَ منى فى باب من أبواب الفكر فإياك لا تتسلطْ عليك حاسة من حواسك فإن لهذه الحواس ضراوةَ السباع وكَلَبَها[3]؛ والعاطفة تجعل الإنسان أشكَلَ بالملائكة والحاسة تجعله أقرب للشياطين؛ والحب كالخمر كلاهما نشوةٌ وكلاهما دواء فلا تُجاوز حدَّ الطب فيما ترى ولا حدَّ الشعر فيما تفهم، وإلا كنتَ كالمدمن لا يكفيه إلا مِلءُ جوفه حرَّةً وظماً ومرضاً وجنوناً. وإذا هو ملأه توهّم أنه يَسَعُ بحراً من الخمر ولا يزال يطمع فى الانتشاء ولا يزال يُسرِف

(١) أساغوا؛ يقال: أوجرته الدواء ـ إذا أكرهته على شربه.

(٢) من أوله إلى تاليه إلى آخره.

(٣) شدة الحيوانية فيها.

على نفسه حتى يذهب عقله وينكفئَ وما به قدرةٌ على شيء ولا على أن يتوهم شيئاً. اجعل الحبَّ تعلُّلاً ودع مكارهَه فى ناحية. وميِّز بين ما يجب أن يبقى خَيالاً وما يجوز أن يكون واقعاً، فإن أردت أن تُخرج من كل صورة فى خيالك صورةً من الواقع أشقيتَ نفسك واستفرغتَ كلَّ همك وقواك فى باطل وعبث ليس مثلهما باطلٌ ولا عبث. دع المعانى فى ألفاظها إن لم تؤاتكَ الأسبابُ وعللُ الأقدار على خلقها أعمالاً فإنك إن داريتَها ولم تجئك بالمسرَّة التى تريدها جاءتك بغيرها وخرج منها على العلاَّت شىءٌ ما يكون منه أمرٌ ما.... وكن فى قوة عواطفك وإحكامها وضبطها كالمصارع الجبار الذى لا يُوضعُ جنبه(١) فإنه كما تعلم يعركُ بكل جهة من جهاته أنواعاً من أقوى القوة ممثلةً فى أجسام من أعنف العُنف؛ فصدرُهُ الذى لا يُعطفُ وظهره الذى لا يُضغَط وأطرافه التى لا تَهِنُ ولا تكلّ، وكلُّ لوحٍ فيه إنما هو رجل تامُّ الخِلقة وثيقُ التركيب لأن كل ما فيه قوة بالغة فى قوة بالغة، ولأن الرجل لم يجتمع كذلك إلا من المكاره والغمَرات التى خاضها وثبت عليها حتى كأنما خرج بها من وزن رجل إلى وزن جبل.

ثم تقول: دع الدماغ يحلم نائماً أو منتبهاً، ولكن متى انعدلَ الليلُ راجعاً إلى مآبه واستدار النصفُ المضىء من الكرة فلا تجعل حُلُمَ الرأس الذى هو أداةُ الخيال سبباً فى عذاب الحواس التى هى أدوات الواقع. واقطع من نفسك أسباب المطمعة الخيالية تجدْ كل شىء قاراً فى موضعه لا ينحرف ولا يضطرب ولا يتململ؛ وتذهب أحلامُ النوم فى النوم وتأتى حقائق اليقَظة مع اليقظة وكنا فى انتظارها فلا يَفجأنا منها شىء. إنك ربما تأتى فى أحلامك ما لا يسوِّغهُ عذر، وترى وتسمع ما لا وجود له، وتجد منزعاً من أمور ليس فيها منزع، وتَمُوجُ بك العوالِم كلها وأنت ساكن فى نومك مستثقلٌ حتى على الحركة الضعيفة. وحسبكَ بعضُ هذا فى الدلالة على أن الدماغ لا يَسكنُ إلى نزواته عاقل لأنه مصنعُ المستحيلات كما هو مصنع الممكنات.

آه يا عزيزى لو رأيت كيف تختلط المعانى بأنفاس شفتيها وكيف تُقبل عليك ألفاظها وفيها من اللطف واللين والرقة وألوان النفْس أكثر مما فى خدى عذراء

(١) لا يغلب فيرمى على الأرض.

سافرة بين عشاقها لا يفارقها الحياء من الألحاظ ولا تفارقها الألحاظ. إنها لتُميتُ داءَ الصدر من الوساوس والشهوات إذا هى كلمتك بتلك اللغة القلبية التى تمحق حواسك مَحقاً إن كنتَ رجلاً كريم النفس؛ وإذا هى استسلمت بكلماتها إليك ولكن فى حماية ضميرك. تُسمعك صوتَ ضعفها ملتجئاً إلى قوتك وكأنها تقول لك إن نصفَ كلامى هو هذا والنصف الآخر هو ثقتى بشرفك.

فى المرأة الجميلة أشياء كثيرة تقتل الرجل قتلاً وتخلجُه[1] عن كل ما فى دنياه كما تَخلجُه المنَية عن الدنيا؛ وليس فيها شىء واحد ينقذه منها إذا أحبها، بل تأتيه الفتنةُ من كل ما يُعلنُ وما يُضمر ومن كل ما يَرى وما يسمع ومن كل ما يريد وما لا يريد؛ وتأتيه كالريح لو جَهدَ جهدَه ما أمسك من مَجراها ولا أرسل. ولكن فى الرجل شيئاً يُنقذ المرأة منه وإن هلك بحبها وإن هدمتْ عيناها من حافَاته وجوانبه. فيه الرجولة إذا كان شهماً، وفيه الضمير إذا كان شريفاً، وفيه الدمُ إذا كان كريماً. فوالذى نفسى بيده لا تعوذُ المرأةُ بشىء من ذلك ساعةَ تُجَنُّ عواطفَه وينفرُ طائر حلمه من صدره إلا عاذَت والله بمعاذٍ يحميها ويعصمها ويمدُّ على طهارتها جناحَ مَلَك من الملائكة.

الرجولةُ والضميرُ والدم الكريم: ثلاثة إذا اجتمعن فى عاشق هلك بثلاث. بتسليط الحبيبة عليه وهو الهلاك الأصغر؛ ثم فتنته بها فتنةً لا تهدأ وهو الهلاكُ الأوسْط؛ ثم إنقاذها منه وهو الهلاكُ الأكبر.. ألاَ إن شرفَ الهلاك خير من نذالة الحياة.

***

(١) قلت: خلج ويخلج : جذب وانتزع وتخلجه: تجذبه كما فى القاموس.

الرسالة التاسعة

القلب الكريم المتألم

إن رسائلى إليك أيها العزيز لتنتزعُ منى دواعىَ هذا الصدر المحزون[1] فإنها كفيضة الملآن[2] ولكنى أراها لا تذهبُ بهمٍّ أستريح إليه، إلا رجعت بهمّ ألتوى عليه؛ وقد يكون بعضُ العزاء عن المصيبة تفنناً من المصيبة نفسها؛ كدمعة مَن يرثى لك من النكبة يجيئكَ بها تعزيةً ولها على نفسك الأبية غمزٌ مؤلم قد يكون أشدَّ من ابتسامة العدو الذى يشمت بك.

أكتب إليك فى أحزانى اضطراراً أيها الصديق فأنت الجسم الثانى لروحى وقد هدم ذلك الحب صورتى الأولى فسكنتُ منك لصورتى الثانية؛ وما أعجب رحمةَ الله إذ تحيلُ كل همٍ فى هذا الإنسان الضعيف إلى قوة تبعثه على التماس العطف والرقة من كل النواحى الإنسانية؛ كأن فى النفس بجانب كل شيطان مَلَكاً إن لم يستطع تحويلَ الشر إلى خير أخرج منه نزْعة من نزَعات الخير.

واهاً لهذا القلب الذى أحمله فإنما هو عقلُ فيلسوف خُلق على شكل القلوب؛ فهو يأتينى من كل شىء بشىء غيره حتى تلك التى أُحبها جاءنى منها بهذه التى أُبغضها وبقى مع ذلك يتفلسفُ فى حبها.. ولكنه قلبٌ جليل سامى النزعة قارٌّ كالصبر مجتمعٌ كالإيمان؛ يقول لكل حاسة أو عاطفة أرادت أن تتهضَّم فىَّ أو تستذلَّ: يا سَرْحَةَ الوادى لا يزال هناك جبلٌ لا ينحنى لعاصفتك.

قلب لا أدرى أوهبنى الله له أو وهبه لى فهو مثارُ الآلم ومهبِط الرحمة جميعاً. ولقد ورد فى أثر من الآثار إن العبد إذا دعا لإنسان قد اشتدّ بلاؤه فقال: اللهم ارحمه؛ يقول الله: كيف أرحمُه من شىء به أرحمُه. وكيف يرحمنى الله من هذا القلب وقد رحمنى به فى ذات نفسى؟

إنما علة البلاء من ناحيتنا نحن، ثم من هذه الجهة الفانية جهة الجسم الذى

(١) أسباب الضجر ونحوها.

(٢) الملآن يفيض فيخف ما به.

يَستيقن أنه يعيش ليموت وهو مع ذلك يقبل المقدّمات وحدها ويحاول دائماً أن يفرّ من نتائجها. . كأن النتيجة ليست فى المقدّمة والآخرةَ ليست فى الأولى؛ أما تلك الناحية الخالدة ناحية الروح فهى كما قيل فى شجرة الصندل: تعطرُ الفأس التى تضربها وتَحْطِمُ فيها.

هذا القلب هو سر الجمال الإنسانى لأن فيه بَرَكَةَ النفس وزينتها وسكَنَها؛ فالبركة تنبت من الخُلُق الطيب والزينة تخرج من الفكر الجميل والسكَن يثبتُ بالإيمان واليقين؛ وما جمال النفس الإنسانية إلا خُلُق وفكرة وفضيلة مؤْمنة.

مازلتُ منذ وَعيتُ كأنما أُفرِغ فى قلبى هذا قلوب الناس بتوجُّعى لهم وحنانى عليهم، وكأنما أعيش فى هذه الأرض عيش من وضع رِجلاً فى الدنيا ورجلاً فى الآخرة؛ أحفظ الله فى خلقه لأنى أحفظ فى نفسى الرحمة لهم وإن كان فيهم من يُشبه فى التَّلَفُّف على دَواهيه باباً مقفلاً على مغارة مظلمة فى ليل دامس. . وأتّقى طائلة قلوبهم[1] وألبسهم على تفصيلهم قصاراً أو طوالاً كما خرجوا من شقّى المقَصّ المجتمعين من الليل والنهار تحت مسمار الشمس؛ وأُصدرهم من نفسى مَصدراً واحداً لأنى أعلم أن ميزان الله الذى يَشيل ويَرْجَح بالخفيف والثقيل ليس فى يدى فلا أُستخفُّ ولا أستثقل، وأعرف أن الفضيلة ليست شيئاً فى نفسها وإنما هى بالاعتبار فلا أدرى إن كانت عند الله فى فلان الذى يحقِّر الناس أو فلان الذى يحقِّره الناس. وليس من طبعى أن أتصفّح على الخلق[2] فإن من وضع نفسه هذا الموضع هلك بالناس ولا يَحيَوْن به وتعقّدوا فى صدره كما يتعقد الماء العذب بالغُصَص المؤلمة، ورمَوْه بذنوبهم من حيث لا يُمَحِّصُ عنهم شيئاً[3]. وقد خلقهم من عَلِمَهُمْ كيف يجيئون وكيف يذهبون؛ وما تَقذفُ بطون الأمهات فى هذه الأرض إلا تواريخ كُتبت فى الأزل كما قدّر الله ولما قضاه فمن استقامَ فعلى الخطِّ الذى امتدّ له ومن زاغَ فللدائرة التى انحرف به محيطها المائل من طَرَفيه إن سَفَل وإن علا.

لقد أقمتُ من نفسى لهذا الخَلق جبلاً وإن هذا الجبل ليتدحرج عليه الصخر

(١) كناية عن الحسد ونحوه.

(٢) تصفح على الناس: التمس عيوبهم وفتش عنها.

(٣) محص الذنب بالتوبة محاه.

الصلد ويلصق به الحصى المسنون وينغرز فيه الشوك الدامى وتنبت منه الفروع المُرَّة وترسو بين أطباقه العروق الضاربة؛ ولكنه على ذلك جَبَلٌ وهو بذلك أتم روعة ورهبة. ولكل شيء مما عددتُ معنى فى نفسه، ولكلها مجتمعةً وحدها معنى آخر ولجميعها مبعثرة يَتخطَّى المعنيَيْن فى الجبل معنى ثالث.

فما أضيقُ بالناس ولا أتبرّم[1] ولى أبداً مع الضعفاء والأقوياء سَفَحٌ ظليل مُخضَرٌّ وقمَّة عالية[2] متمرّدة؛ وإنى على ما وصفتُ لأرى فى أعماق هذا الطود الراسى بركاناً يتزلزل به كلما اضطرم جاحمُه، ذائباً فى الأغوار البعيدة تُمسكه الأرض إمساك العزيمة وتشدُّ عليه شَدَّةَ الصبرِ على أنه لُجَجٌ من النار؛ فترى الطَّود الشامخ قائماً على الأرض كأنه أرض مستقلة وفى جوفه ما يَحْطِمُهُ مما يمور ويضطرب[3].

وكأنى إذ لا أحاسب الناس أحاسب نفسى بكل ذنوبهم إلىّ فأفجُرُ عروق دمى عليهم، وكأن ذلك الكمال الإنسانى الذى لا يزال بعيداً عنى يحاول أن يقتلعنى من أساسى لأثب إليه فى أقاصى عُلوِّه.

إن النملة من النمل لتخاف على قَرْيتها من قَدَم الطفل الرضيع ما نخاف نحن على كرة الأرض من أكبر نجوم السماء متى خشينا أن يتنفس عليها فيرسلها زفرةً فى صدر الأبد. وكم بين قرية النمل وبين كرة الأرض؛ وأين وطأة الرضيع من صدمة النجم؟ ولكن كل شيء فإنما هو باعتباره فى نفسه وباعتباره لنفسه؛ ألا وإن الزلزلة التى يُضرب بها ذلك الجبل القائم من نفسى إنما رقة رقَّةُ الحب.

وإن تَعجَبْ فعَجَبٌ ما ترى أن هذا القلب الإنسانى لا يُصبح هَشيمةً[4] فى جنبى صاحبه يأخذ الناس منه ويدَّعون كيف شاؤوا إلا إذا أنبت الله صاحبَه المسكين من نبعةٍ باسقةٍ فى مغرسٍ طيِّب[5] وأخرجه فى صيغة كريمة وأودع فى

---

(١) أتضجر؛ وبرم بالشيء (بكسر الراء) وتبرم.

(٢) السفح من معانيه أسفل الجبل.

(٣) يسيل ويغلى.

(٤) مهشوماً محطماً وفلان هشيمة الناس وهشيمة كرم يأخذه الناس كيف يشاؤون لانطباعه على الكرم والسهولة.

(٥) المراد بكل ذلك كرم الأصل.

أعصابه ميراثاً سامياً من الدم. ولقد تجد هذا الرجل الكريم ملءَ ذكائه دهاءً ونُكراً[١] ونَفاذاً فى أعضل الأمور يَنقعُ فى الحوادث فكره كما ينقع الثعبان نابه المسموم، وقد تجده فى بدنه شديد الفحْلة[٢] معصوباً عصباً كأنه من عضلاته فى لفائف الحديد؛ ولكنك تجد قلبه شيئاً غير هذا كله، لا يُسرع إلا فى هدمه ولا يتركه يدور كما يدور غيره على الخطوط والأضلاع الطويلة من زوايا الحياة بل ينفذ به إلى الهموم من أقطارها على استقامة، فما أسرع ما يتهدَّمُ وتتقصَّفُ سنُّه بعضها على بعض[٣] وربما كان فى الأربعين فلا ترى إلا أن العمر يخيِّط فى ثوب همه بأربعين إبرة.

بهذا القلب رأيتُنى كلما كبرتُ صغرت الدنيا فى عينّى وكلما تقدمتُ دانيت أطرافها العليا فأصبحتُ أشعر حقاً أن هذا العمر إنما هو سلَّم إلى السماء لا إلى غيرها؛ ومن هذا القلب اعتادت بعض سفن الأقدار أن تجد فيه حَلقةً ثابتةً متينة تشدُّ إليها حبالها إذا هى أرست على شاطئ الدهر بأحمالها، فالناس يتناولون منها خفافاً وثقالاً ولكن الحلقة المعذبة لا عمل لها إلا أن تهتز وترتجّ من الألم والشدة والعنف.

وفى هذا القلب أعرف موضع كل شيء إلا نفسى فما أدرى أهو من الضَّعة[٤] بحيث صارت فوق أن تنزل فيه أم هو من السموّ بحيث صار نفساً وحدها؟ ولكنه على الحالين أشقانى بهذه النفس وطوَّح بى وبها فى مهاوى الأحزان إلى قرار بعيد.

فى قلب كل إنسان معنى من الأزل لأنه كان ذَرَّةً فى يد الله، بَيدَ أن هذه الذرَّة تُمحَقُ فى بعض الناس أنواعاً من المحق، فتصيب الرجل وإنه لعظيم جليل ولكنه فى ميزان الله لا يَعدل مثقال ذرة من حَسنة من رجلٍ حقير، وتَرْبو فى بعض الناس وتتنفخ فإذا هى فى وزن الجبل الراسخ بأعضاده[٥] المترامى بنواحيه؛ فيا قلبى المسكين ما أنت منهما؟ لقد تعذبتُ بك طويلاً وتقلدتُ منك بليَّتى فما تغمز

(١) أى سياسة ومكراً.

(٢) الفحلة هيئة الفحولة وقوتها فى الرجل قلت: يقال: امرأة فحلة أى سليطة كما فى القاموس.

(٣) تمر أيامه مسرعة.

(٤) قلت: يقال: تضعضع: خضع وذل وافتقر كما فى القاموس.

(٥) التلال المحيطة به.

بعللك ونزعاتك إلا فى صميم الروح غمزاً كوَخز الإبر، ولا تضرب عروقى التى تستقى منك إلا على ألم تأتينى به إذ كنتَ لا ترمينى إلا بشرّ ما تجدُ من هموم الناس؛ وإذ ترى أن درس الشر والآلام إنما هو عنصر الفلسفة الأسمى وإنما هو الفضيلة المنحلَّة لمن يريد أن يعلم ويرى كيف تتألم أجزاء الفضيلة فى باطنها. فأنت تنتشِطُ[1] الحزن من كل شىء وتأتينى به لأتحزنَّ وأتألم فألمس بالحزن والألم مصراعى باب السماء. وأنت تبسط علىَّ رواق المعانى المظلمة من الآلام والأحزان لأرى فى ظلماتها أشعة روحى المضيئة بالإيمان والرضا.

رضيتُ يا قلبى المسكين أن تجتمع من حطامى المتناثرة وأن تكون سوياً تاماً وأكون أنا الجسم الحيوانى أشلاءً وبقايا[2]؛ فإنى رأيت شرَّ أهل الدنيا ذلك الذى هو أهناهم بمتاعها حتى كأنه فى شهواته ولذاته لم يجتمع إلا من حُطام قلبه المتبدد. الشهوات واللذات تبنى عالماً والآلام والأحزان تبنى عالماً آخر وهما يتجاوران كما يلتصق حائط الليل بحائط النهار؛ وأنت يا قلبى المتألم لا تُشرِف على العالم الأول إلا ما يشرف النظر العالى من البعيد البعيد لأنك طَوْدٌ[3] باذخ رسختْ جذوره فى العالم الثانى.

إن الإبرَة المغنطة[4] التى تهدى السفن باتجاهها لهى القلب الذى تحمل فيه السفينة روح الأرض؛ والقلب الإنسانى هو كتلك الإبرة غير أنه يحمل روح السماء. ولولا حاسة الاتجاه الإلهى فيه لتمزقت علينا جهات الأرض[5] فى أنفسنا فضللنا فيها وارتبكنا فى فُتوقها الواسعة حتى لا يهتدى إنسان إلى الجهة الإنسانية. ولكنا نتغافل عن هذه الحاسة فيه وترى أكثر الناس لا يُقبلون بأنفسهم إلا على جهة أجسامهم ويطوى أحدهم الدهر الفسيح من عمره وما ارتفع قليلاً ولا كثيراً بل يكون كالطير فى قفصه يتخبط بين أرض وسماء، وما بين سمائه وأرضه إلا علو ذراع.. وإن أشدّ ما كانت الحياة وأشدّ ما هى كائنة على من لا يجد لذة قلبه

---

(١) تختطف.

(٢) الأشلاء: الأجزاء المقطعة.

(٣) قلت: الطود: الجبل كما فى القاموس.

(٤) البوصلة.

(٥) كناية عن الشهوات الحيوانية.

فيها؛ وأصعب ما تكون الإنسانية على من يعظم بحيوانيته وَحَسبُ[1]؛ فتراه وكأن مئة حمار ركِّبت منه فى حمار واحد ولكنه حمار عظيم..

وما رأيت قلبى يلتمس لذةً من بعد إيمانه إلا فى ثلاث: الفكر الإنسانى الذى يهبط فى أدمغة الفلاسفة والشعراء من أعلى السموات أو ينبع من أغوار النفس؛ والفكر الطبيعى الذى يملأ السماء والأرض نوراً وألواناً وجمالاً؛ والفكر الروحى الذى يتلألأ لخيالى فى عينى الحبيبة الجميلة.

(١) أى فقط، وقد عم استعمال هذه الكلمة وكنا أول من استخرجها وأذاعها.

الرسالة العاشرة

لقد وصفتها لك أيها العزيز وملأت رسائلى منها؛ غير أنى والله ما أدرى أوصفتُها أم وصفتُ بها، وكتبتُ منها أم كتبتُ عنها، فإنما ذلك مطلبٌ دونه أن تجعل وصفَ الجمر يلذع لذعَ الجمر؛ ومهما أكتب فإنها باقية فى نفسى لا تنقصُ على قدر ما تزيد.. إن فيها شيئين هما الفكرُ والجمال وفيَّ شيئان هما الخيال والحب؛ وهذه الأربعة تُنْشِئُها فى نفسى خلقاً بديعاً لم أره لامرأة قطٌ، ففيها وحدها زيادة عن النساء لأن فيها وحدها نفسى.

أما سمعتَ بذلك الأعرابى الذى قيل له: ما بَغَ من حبك لفلانة؟ فقال: والله إنى لأرى الشمس على حائطها أحسنَ منها على حيطان جيرانها.. قد والله صَدَقَ وبرَّت يمينه فإن فى كلماته الشعرية لأثراً من عينيه إذ يرى الشمس على حائطها كالشمس على البِلَّور الصافى لا على الحجر والمَدَر؛ فهناك أشعةٌ أخرى من تلك التى وراء الحائط تنفذ إلى قلب هذا المسكين فإذا هى سطعت لخياله فى نور الشمس أضافت إلى النور ألواناً مختلفة من ذلك المعنى الجميل الحىّ فلا تكون الشمس فى عينيه أحسنَ مما هى وقتئذٍ ولو أنها طلعت على حائط من اللؤلؤ.

ليس الجمال ما يَعلم الكاتب أو يدرسه الفيلسوف ولا هو مذهبٌ التلفيق فى الجمل والألفاظ ولا هو كما صنع علماء الرياضيات الذين جعلوا الفلك كله بألوانه وجماله وما فيه من غموض الأبد مسألة حسابية ... والأرض بما انبسط عليها من جمال الطبيعة مسألة هندسية.. كأن الأزل كله خطوطٌ وزوايا وأرقام؛ وتركوا جانباً حركة الفكر الأعظم القائم بالإرادة الأزلية؛ وهى التى تطالع العقل من كل شىء بمعنى والخيالَ بمعنى آخر ثم تكون هى فى حقيقتها المجهولة معنى ثالثاً. ولكنك مع ذلك واجدٌ فى الأرض من يتسكَّع ويحمل الشمعة ليفتش فى ضوئها عن النجم العظيم..

لو أنى سُئلتُ تسميةً لعلم الجمال لسميته «علم تجديد النفس» فإن الجميل الذى لا يجدد بمعانيه حواسك وعواطفك ويُعيدها غضةً طريةً كما فُطرت من قبل؛ لا يُسمى جميلاً إلا على هذا المجاز الذى سمى به أحد القواد كتابه فى الصنَّاع

الفقراء: (غَزْوُ الخبز).. لا تسل عن الجمال من يحسن الفكر والإبانة عن فكره، ولكن سل عاشقاً يحسن الشعور والتعبير عن شعوره؛ فذلك هو الشاعر من جهاته الأربع: جهة قلبه وفكره وحوادثه وحبيبته، وذلك هو تاريخ الجمال الذى يتكرر على الأرض أبداً وإلى مُنْقطَع الحياة فى صورة واحدة كالحياة نفسها.

ألا ما أتعبَ الإنسان بحياته وموته؛ إن هذه الحياة مصيبةٌ كتبت على الأرواح لإيجاد عيوبها فى عالَم العيوب؛ والموت مصيبة كُتِبتْ عليها لنقل هذه العيوب معها إلى العالم الآخر؛ فما عسى أن يكون الجمال والحب إلا تخفيفاً من مصيبتين أو.. أو زيادة فيهما؟

سأُحدثك عن هذا الجمال كما أوحته إلىّ عواطفى التى ما تزال تدأبُ لا تأتَلى كالنحل على الأزهار والألوان، وكما رأيته فى تلك الحقائق الساحرة التى كانت تفيض بمعانيها على الجميلة فتكسبها غرابة الجمال وتُمثّلها لعينىّ فى ثلاثة ألوان: لون من وجهها ولون من دمها ولون من قلبى. سأنثر لك الجميلة وأسرارَ جمالها وتأثير جمالها نثراً الّفنى والله قبل أن أؤلفَه، وما صعد إلى فكرى وانحدر من قلمى إلا بعد أن وَقَدَتْ عليه الجمَراتُ الحُمْر فَغَلَى فى القلب وتبخَّر واندفع وطار إليك فى كلام كالندى على الورق الأخضر.

إن فى نفس هذا الإنسان أعماقاً بعيدة تنحدر أغوارهُا من مَهوىً إلى مَهوىً إلى ما لا نعلم لأن النفس ما برحت جزءاً من الأزل كبعض النور من النور، ينفصل عنه وهو مُستقرٌ فيه.

وقد نثر الله فى أعماق هذه المصابيح المتَّقدة التى اهتدى فى ضوئها الفكر الإنسانى إلى شىء من الإدراك الأسمى؛ من ذلك النور الذى يشتعلُ ويتوهَّج فى أقطار السموات كلها. وكما ترى فى أعماق الفضاء ترى فى أغوار النفس، فلابدٌ لهذه مما لابدَّ منه لتلك من معانى النور الإلهى؛ فالكوكب يضىءُ فى أعماق الفضاء والوجه الجميل يضىء فى أعماق النفس.

ألم تَرَ إلى المحب الذى أدنفه الحب كيف يشعر أنه متصل بالنور الأزلى من الحسن الذى يعشقه؛ وكيف يرى فى أطواء نفسه أخفى الوساوس وأدقَّها كأنها مكشوفةٌ لعينه على الضوء؛ وكيف يظلٌ أبداً فى حبه كأنما يبحث فى الأرض عما

ليس فى الأرض، ويحاول أن يجد فى قلبه ما لا يُخلق فى القلب. وكأنه وحده الذى يعلم من نفسه أن فوق كل طبقة طبقة أعلى، وتحت كل عمق عمقاً أسفل، فلا يَقنع بشىء لا من عاليها ولا من سافلها؟ وانظر كيف يجعله حبه العظيم يرى العالم كله صغيراً حقيراً؛ وإذا اتفقت له ساعةٌ من حبيبته رآها عجيبةً كأنها ليست من الحياة أو ليست إلا الحياة؛ فهل وَسعَتْ نفسه من الحب شيئاً لا سبيل لأن يُقاسَ معنى العالَمِ به؛ أم صارت أعماقها تطاوِلُ أعماق الفضاء؛ فهو بالحب كائنٌ فيما حوله وما حوله كائن فيه؟

لا أرى سرّ الجمال إلا أنه شىء حقيقى من تلك القوة السماوية التى نسميها الجاذبية؛ فكأن الله حين يُبدِع الجميل يُرسل فى دمه مع الذرَّة الإنسانية ذرةً من مادة الكواكب هى سرُّ عشقه وجاذبيته، وهى بعينها معنى تلك القوة التى لا يزال الجميلُ يُخضِعُ بها كما يُخضع الفَلَكُ المُدار، ويتسلّط على عاشقه كما تتسلط الأقدار، ويبُثُّ فى الدم الإنسانى مع مادة الدم مادّةً من النار.

وما أساليبُ الدلال أو ما نراه دلالاً فى الجميل المعشوق إلا اضطراب تلك الذرة من سكونها؛ فإنها متى تحركت للجاذبية جعلت الجميل يتلألأ من كل جهاته وانبعثت فى كل ناحية منه نوراً فوضعت لكل شىء فيه معنى من المعانى الخيالية إذ هى معنى كل شىء فيه.

ولو أنك سألتَ عاشقاً أن يُصادِمَ من يحبُّ ويتّسع لهجرها ونبْذها ويتجافى عن هواها لكانت عاقبة ذلك فى نفسه ويقينه ما يعلم من العاقبة فى مصادمة الأرض لكوكب من الكواكب، إذ يتحطّم ولا يُغنى شيئاً فى تعطيل قُوة الجذب المنصبَّة من قمره الجميل على كُرة قلبه الضعيفة.

وكما نجدُ للكواكب فى نظام السماء نعرِف نحواً من ذلك لكواكب الجمال فى نظام النفس، فليس كل ظريف جميل يَجذِبُ حسنه فى كل دائرة على ما شاء وشاء الهوى، وإلا فسدت الأرض وأصبح الجنسان فيها كحجرَى الطاحون لا عمل للأعلى إلا أن يطحن على الأسفل.. بل إن لكل جميل فَلَكاً لا تَعدُوه قوة جذبه فإذا هى تخطتّه إلى فلك غيره بطل عملها أو عملت على ضعف أو وقعتْ ثَمَّ موقع صوت القنبلة، يخرِّج منها وليس فيه شىء منها. ذلك بأن الله قد سلَّط على

هذه الأرواح السماوية مواداً مختلفة من ثقل الأرض لا تبرحُ تدافعُ تلك المادة من جاذبية السماء فإما أبطلتْها وإما كسرتْ من حدّتها وإما أضعفتها وإما طمست عليها؛ ما لم تكن النفسان العاشقة والمعشوقة من فلك واحد فى القَدَر الجارى عليهما.

فلو أن أرقَّ من غَمَزَ الحبُّ على قلبه من الشعراء الذين يجعلون الكلمة الواحدة كلاماً طويلاً، يحدِّثك يوماً عن تلك الجميلة التى كَلِفَ بها واختبلَتْه بحبها[1] فأرسلته على وجهه فى كل مذهب من مذاهب الهوى؛ ثم يتفتح لك فى صفتها بكل ما تخيَّلَ حسُه وأحسَّ خياله فيفرغها فى القالب الذى لم يخلق الله فيه امرأةً قط، ويصبها لعينيك ممثَّلةً من النور السماوى المحض تُضىء كُلُّ قطرة منه وجهَ مَلك من الملائكة؛ ثم يجرى كلامه فيها شعراً خالداً مطّرداً كنهر الكوثر فى رياض الجنة حافَتاه من ذهب ومَجراه على الدُّرِّ والياقوتِ، ثم يتفق لك بعدُ أن تراها وتجلس إليها وتطارحها ولستَ من فَلكها الذى تعمل فيه جاذبيتها. إذن لرأيته قد غار من أوصافها فى بئر من الكذب وتعلَّق فى الحديث عن جمالها بخيوط من الباطل ونزل من الحقيقة التى كان يذكرها لك منزلة المُفلس يظلّ متسكعاً فارغاً يُتبعُ نفسه هواها ويتمنى الأمانىّ ولا حقيقة. ولرأيته كالعنكبوت تقضى الأيام الطويلة فى نصب أشراكها وحبائلها لأجمل ظبية فى عينها.. ثم لا تكون ظبيتها إلا ذبابة. وتردُّ عليه سوادَ أمره وبياضه كذباً وزوُراً وتتهم ذوقه وتهجِّن طبعه وتتّقى عليه أن يكون قد تخبَّطه مَسٌّ من الشيطان؛ وأنت على ذلك مستيقن أنك تكلمه فيها بأصحّ لفظ وأوضح معنى وأصدق نصيحة وإنك تُلقى فى إذنه براهين المنطق وحجج الفلاسفة وتصحح له خطأه فى رائحة الزهرة بالزهرة نفسها.. تقول له: ها هى ذه فى ريَّاها ونسيمها، فأين ما زعمتَ لها؟ على أنه هو فى كل ذلك لا يراك إلا كالأقطع الذى يُقدِّرُ قياس الباع الطويل ببقايا ذراعيه، والمُقعد الذى يضبط قياس الخطوة الفسيحة بمد رجليه؛ والأعمى الذى يُفاضل بين لونين؛ ويكذِّب فى رأيه ذا العينين، ويراك مجنوناً فاسد العقل أو سخيفاً فاسد الذوق أو

(١) أصابته بالخبل والجنون.

أحمق فاسد الرأى.. وما بك ولا به بأسٌ غير أنك تنظر مُدبراً وينظر مُقبلاً، وتهزأ بتيّار البحر لأن قدميك فى الشاطئ ويرهبه هو لأنه مندفع فيه منخلع القلب من فورانه وهديره. وأنت تروى فيما وصفتَ لهُ بلسانك عن عينك عن هذه المرأة؛ وهو يروى فيما صوّر لك بالسند الطويل: بلسانه عن عينه عن خياله عن آماله عن قلبه عن روحه عن القدَر المحتوم عن هذه الحبيبة. وأنت فى نفسك كأنما تنظر من الأرض إلى النجم فلا تراه بعلم ولا يقين ؛ وهو فى نفسه إنما ينظر من فلك النجم إلى النجم ذاته فإذا الكوكب ما هو . وإذا قضاء واسع من النار وجوٌّ عميق من المغناطيس ومظهرٌ من القدرة العظمى جماله فى هيبته وهيبته فى قوته وقوته فى جماله فهو شىء واحد بعضه من بعض.

وإذا رحم الله إنساناً من هذا الحب ومن التعلق بالجمال كدَّر طينته وأغلظ على نفسه بموادّ ثقيلة من هموم الحياة وأكدار العيش؛ أو أفرط عليه بآمال النفس وأطماع الحاسة فيشغَل بكل ذلك أو بعضه ويحوط منه بمثل أكياس الرمل التى يتحصّن وراءها المقاتلةُ فلا تنفُذُها الطائرات الحمر[1] بل تنطفئ فيها ، ويجعل له من دون العيون الذابلة والحاظها صدراً مصفَّحاً بما يتساقط فى داخله من جوانب نفسه وما يتصدع من أركان قلبه بين الكمد والهمّ أو الأمل والطمع أو الجهد والتعب أو الثقل والغلظة أو غيرها من هَزاهز العيش ودواهيه؛ فتذهب سطوة الجمال فى سطوة المادة، وتُخضع الإنسان قوةٌ بإفلاته من قوة أخرى ويُهدَمُ من أعلاه ليُشدَ بناؤهُ من أسفله.

وما من أحد فى الأرض يستقيم طبعه على الجمع بين همّ الحب وهم الحياة فإن قام بواحد زاغ من الآخر لا يبالى به إذا هما حقيقتان متدافعتان كتيّارى الكهرباء ،لو أمكن شىء من المستحيل لما أمكن أن يَطَّردا فى سلك واحد اطّرادهما فى السلكين .فإن لم تكن محاملُ هذا الجسد[2] خفيفةً على النفس من جهات الفكر والهم وإلا انصبغ الذوقُ فالتبست ألوانه وخالط بعضُها بعضاً وضعفت موهبة التمييز بين المعانى المضيئة وصار الإنسان هماً كافياً لنفسه وعادت النفس هماً كافيا لصاحبها فليس بينهما على ذلك موضعٌ لما ليس منهما .وتحول مادة ذلك

(١) الرصاص ونحوه.

(٢) أغراضه المادية الحيوانية التى تحمله.

الهم بغلظتها وجفائها بين السر المعشوق فى الجمال والسر العاشق فى الروح فلا يُدرك منهما شىء شيئاً.

فهذا الجمال إن شئت قدرةٌ لا قوة فيها ،وإن شئت قوةٌ لا قدرة لها؛ ولو أن الله جعلهُ مجموعاً من القوة والقدرة معاً لأبطل سُنن الطبيعة الإنسانية ولصار لكل إنسان كون وحده فى القلب الذى يَرفُّ ليخفق على قلبه؛ ووطنٌ على حِياله فى الجسم الذى يحنُّ لينضم إلى جسمه ؛ ودينٌ على حدة يهبط الوحى فيه نظرات من عينين إلى عينين، وقانونٌ مستقلٌ لا تكون موادُّهُ إلّا قبلات من شفتين على شفتين. واعلم أن أشقى المخلوقات هم أولئك التعساء الذين يشذُّون فى تاريخ الناس أحياناً وينفردون دونهم يجنون الحب كما حدثوا عن (مجنون ليلى) [١] إذا يتسلط عليهم الجمال بضرب ممتزج من القوة والقدرة يغمر الطاقَةَ الإنسانية ، ثم تجىء أقدار غريبة بين الرحمة والقسوة فتجذب الحب إلى الحبٌ ولكنها تدفع المحبَّ عن الحبيب ، فلا يزال الجمال يسوقهم سوقا عنيفا من ناره إلى جنته ثم يَردُهم عن باب الجنة إلى النار حتى يصبح الواحد منهم بين العناصر والنواميس المنتظمة فى هذا الكون الإنسانى كأنه عنصر مجنون أو ناموسٌ مختل.

إن هذا الإنسان وعاء من الأوعية لا يملأه إلا الأفكار والنزَّعات ومتى احتلَّ الفكرُ وتمدد ، ثم ضرب فتمكن، ثم غار بجذوره وانشعب بفروعه صبَغَ الأشياء كلها في عينى صاحبه بألوان منه حتى كأنه لا ينبعث فى أشعة النظر إلا ليلبس كلَّ ما تنظره العين فلا يرى المرء فيما يرى إلا صوراً من فكره كما تنبعث أخيلَة السيما[٢] فى أنوارها على حائطها فإذا هو تاريخ وحكاية وعمل وحَياةٌ وإذا هو هى على أنه حائط .ولم يخلق الله فيما أعرف غيرَ الحب فكراً يتمكن من الإنسان ويضربُ الضربات الثقيلة فيستطير فى قلبه استطارة الصدْع الشادخ فى لوح الزجاج ، يَشُقُّهُ على مَدَ ما تتصل إليه حركته ويثلمه[٣] على غير قاعدة من هنا وههنا ويَدعَه فلولاً تتشظَّى [٤] وما هذا الحب إلا فكر الجمال وأثر عمله فى

(١) هو مجنون بنى عامر الشهير واسمه قيس رحمه الله.

(٢) خيلات السينما توغراف.

(٣) قلت: يقال ثلمه: كسر حرفه كما فى القاموس .

(٤) بقايا تتفتت وتتناثر

النفس، إذ كان الجمال الفاتن لا يُخلق على ذلك الأسلوب الذي هو عليه إلا ليستحوذ على التخيُّل والحس معاً ؛فهو نوع من جَوْرْ الطبيعة على الإنسان يجيء من اتصال أحسن ما ظهر فى شخص بأحسن ما كَمَنَ فى شخص آخر ؛ وهو كذلك نوعٌ من استثارة هذه الطبيعة لكل ما فى أعماق النفس الإنسانية ببعض ما فى أعماقها هى . فالعاشقُ مُقتتلٌ[1] بأسلحة طبيعية منها كلُّ نظرة من حبيبه وكلُّ كلمة وكلُّ حركة وكلُّ ما مسَّه أو اتصل به منه. ولذلك لأن قوة طبيعية عجيبة تنفثها رهبةُ الكون وتحصرها بين نفسه ونفس حبيبته لتجعل منهما طريقى سلبها وإيجابها ؛هذه القوة هى الفكر ؛ هى ذلك الحب ؛ هى الكهرباء المتألقة من نفسين. ومثلُ ذلك بعينه فى الضرب على قلب الإنسان ما يتملك هذا القلب من هموم الدنيا وشدّات مصائبها . كلاَ الفكرين قتلٌ من الطبيعة غير أنها في أحدهما باسمة وفى الآخَر عابسة .تقتلُ الإنسان بما يُحب كما تقتله بما يكره وهما طريقتان لا تسلك غيرهما إذا أرادت أن تنفذ بقَدرَ من الأقدار الماحقة إلى باطن النفس لتترك هذا الإنسان المعذَّب يحسُّ بغمْزِ القوى الخفية على فؤاده.

(١) مقتول.

الرسالة الحادية عشرة

تقول أيها الصديق : « ألا زدنى ثم زدنى فإن ليلك الحزين قد تفجرَّ لك بصبح من تلك الشمس ، وإن قلمك ليجمع أشعة النجوم ويصورٌ منها ذلك القمر ، وإنك لأنت المحبُّ الذى يخرجُ من جنونه العقلُ الكامل. ولئن كانت تلك الحبيبة قد اختلجت نفسها [1] من يدك فما ذلك إلا أنها مَلكٌ مدّ إليك جناحه وأمكنك منه ثم انفلت ليدَع فى يدك الريشة السماوية التى تُصوِّره بها ».

كذلك كانت تقول هى : « أنا لا أخشى غضبك فإن غضبك علىّ لا يكون إلا السحابة المطرَّزةَ بخيوط البرق تهبط فى ألوانها مُذهبَّةً وتجلجل بأجراسها من بعيد لأنها تحمل إليك مَلك الوحى الذى لا ينزل عادةً إلا في جوّ من البرق والرعد ».

ما كثرت أمراضُ التأويل فى شىء كثرتَها فى تعرُّف حقيقة الجمال؛ على أن هذه الحقيقة لاتُستخرَج إلا من الدم ؛ فلو فتّشت عنها السماء والأرض فلسفةً لجئت فيها بملء السماء والأرض كلاماً كذبا.

الجمال في حقيقته التى لا تختلف إنما هو معنى ً من المعانى الحبيبة يَعلقُ بالنفس فيُحدِث فكراً متمكناً تتطاوع له هذه النفس العاشقة حتى ينطبع فى أعصابها فيستولى على الإنسان كله بجزء من عقله ومن ثم يتقيد المحب بقيد لا فكاك له إذ لايجد ماينتزعه من عقله أو ينتزع عقله منه إلا أن يموت أو يجنّ ، وهو من ذلك المعنى محتبَس فى قفل لو ضَغطَتْ عليه السموات والأرض لما تَسنىَّ ولا انكسر ، وليس إلاالحبيبة وحدها هى فَتحهُ وإغلاقه.

بهذا يكون الجمالُ على مقدار ما يُحسن الإنسان أن يفهم منه ،ثم على مقدار ما يُوثِّر من هذا الفهم، ثم على مقدار ما يَثْبُتُ من هذا التأثير . وتلك هى درجاته الثلاث:

فجمالٌ تستحسنه ،وآخر تعشقه، وجمالٌ تُجَنُّ به جنوناً.

---

(١) انتزعت نفسها ؛ كناية عن الهجر.

والأول تجودُ به الطبيعة فى أشياء كثيرة بل هو الأصل فى الخلق ولكنا لا نتنبه منه إلا لما نجد فيه رَوحاً على القلب ورِقَّةً للنفس وترفيهاً لهما؛ وهذا الجمال خاضع للإنسان ومن ثَمّ فلا سلطان له إلا بعض الميل والرغبة فى النفس، ومنه كلُّ مناظر الطبيعة .

والثانى تعلو به الطبيعةُ عن هذه الطبقة وتُنزِله منزلة أعلاقها وذخائرها النفيسة وتتسلط به على بعض النظام الإنسانى كما تتسلط بهذا النظام على بعضه فيحبُّ الإنسان ويسلو ،ويمرضُ بالحب ثم يصنعُ بيده دواءَ مرضه ويشرب منه السلوان والعافية . . . إذا هو بإزاء الجمال الذى يتسلط من ناحيةٍ ويخضع من ناحية تقابلها.

والثالث لا يجد من يجده إلا مرة واحدة كما أنه لا يموت إلا مرة واحدة، وهو من خوارق الطبيعة التى كلُّ نظامها أن العقل لا يعرف لها نظاماً ؛ وما هو إلا أن يصوِّب الإنسان رأسه فإذا هو عند جنون الحب وإذا هو بجنونه فوق العقل والمعقول.

فالمرأة فى عين محبها المفتون أجملُ من مسحتْ يدُ الله على وجهها من النساء فتركت الأثر الإلهىّ يتسلط فى سحر عينيها ، وطبعت المعنى النارى يلتهب فى شعاع خديها ، وأودَعَتْ رَوْحَ الجنة أمانة بين شفتيها ؛ ووصلتْ بين الرحمة والنفوس بذلك النور المتلألئ فى ثغرها ،وبين النقمة والقلوب بتلك النار المستعرة من هجرها، وأضافت إلى النواميس النافذة فى الكون فتور عينيها وتنهدات صدرها.

ويراها المحبّ فما يحسب إلا أن قطعة من السماء قد صارت ثوباً لجسمها، وأن قدَراً من الأقدار قد نشأ على الأرض وسُمى باسمها ، وإذا نظر إليها عَلِمَ بدلالة وجهها أنها من القمر ، وإذا نظرَتْ هى إليه أعلمته بدلالة لحظها أنها من القَدرَ.

وتُسالِمه فيحلُّ سلام. الدنيا كلها فى قلبه ،وتُغاضبه فيقع فى حربِ هذه الحياة وتقع الحياة فى حربه، وإذا ضاقت الجميلة به ساعةً واحدةً لم يبق له بالعمر استطاعة، وإذا كان الهرم بالسنين الطويلة هَرِمَ فى هجرها بالدقيقة والساعة.

ويرى لو أن الجمال نفسه خُلق امرأة لكانَها ، ولو جادل أحدٌ فى المحاسن لجعلتْها المحاسنُ برهانها، فهى تُقبل بوجهها الفتان كما تقبل السعادة بالأمل الوسيم، وتختال بمعانيها النسائية كما تهبُّ روائح الأزهار فى النسيم ، رَفَّافة على الحب كأنها خُلقت فى جنة الحب رَيحانة ، مسكرةٌ للعاشقين كأن نهر الخمر فى الجنة جعل فمها لهذا العاشق حانَةً[1] ، صافيةٌ يترقرق فى حسنها ماء دلالها ، وتُشرِقُ بالقمر الأزهر من وجهها سماءُ جمالها ، ولا تشبه إلا نفسها كما لا يشبهها إلا ما تبدى المرآة من خيالها.

ويغلو فيفسر النظرة منها تفسير الفقيه المتكلم للآية، ويقفُ عند الابتسامة وقوف السابق إذا فاز عند الغاية ، وينظر إليها فى ثوبها ولكن كما ينظر القائد إلى مجد وطنه فى الراية ، ويسمع صمتها كأنه كلامٌ بين نفسه وبينها ، ويعى كلامها فلا تدرى أأنطقت به فمها أم أنطقت به عينها ،فهى بجملتها ليس فيها من الحسن إلا وَحىٌ وتنزيل ، وهو بجملته ليس فيه من الحب إلا تفسير وتأويل ، ثم هى وحدها القاعدة العامَّة فى الجمال وهو وحده البرهان والدليل .

وتراه ينظر إليها ولكنه من سحر جمالها كأنه يتوهمُها ،ويعرفها ولكنه من سطوة جلالها كأنه لا يفهمها ،ثم تعلو فما يُشرِقُ حسنُها عليه إلا كالمعنى الأزلىّ من جانب فى الغيب ، ثم تعظُم فلا يدرك ما فيها من الحقيقة السماوية إلا على طريقة أهل الأرض فى إدراك الحقائق العظمى بالإيمان والريب.

تلك هى الحبيبة الجميلة لا تعرف إن كان الجمال في شخصها أو فى الجزء المتصل منك بشخصها .

فهى جميلة من ناحيتك ومن ناحيتها ومما بينهما ، وهذا هو الذى يجعلها فوق الجمال الإنسانى بطبقتين لا تسمو امرأة إلى واحدة منهما ، ويجعلك ترى ما فيها من الإبهام جمالاً لا تفسير له وما فيها من التفسير جمالاً مُبهماً؛ فكأنها فى كل ذلك دائرةٌ مرسومة من الفكر لا يهديك البحث إلى موضع طرفيها. ٠وهى محيطة بروحك من ثلاث جهات فلم يبق لك إلا الجهة التى تتصل روحك منها بيد الله وهذا هو موضع التأليه فى الجمال المعشوق ، إذ لا يَدَعُك الحبُّ معه إلا

(١) قلت: الحانة : موضع تباع فيه الخمر كما فى القاموس .

بين شيئين اثنين: الحبيبة والخالق.

ألم تر إلى شعراء الدنيا وهم أنبياء الجمال الذين لا تتصل ملائكته بغيرهم ولا يفهم غيرهم ما يفهمون منها ، كيف يشبهون الحسن الرائع بكل ما فى الخليقة من مظاهر الروعة، فيتناولون من الآفاق والسحب والبروق والرعود ، ومن الشمس والقمر والنجوم والأفلاك، ومن الخلد والجنة والنار ، ويأخذون من الجبال والبحار والأنهار ومن الرياض والأزهار ثم الطير والوحوش ثم المعادن وأفلاذ الأرض ، ومن كل ما ختمت عليه يد الله بروعة أو طبعت عليه برهبة ، ويجمعون ذلك ثم يفيضونه فى أوصاف الجميلة وجمالها حتى لكأنها ذلك السر الذى قام به حسن الخليقة وحتى كأن الله لم يخلقها إلا ليكون كل شىء فيها تفسيراً لشىء ما فى آية من آياته وما ذلك بمبالغة من الشعراء ولكن أرواحهم الجميلة قد أحيط بها من هذا الجمال النسائى فأينما أحسوا رأوا له صلة بإحساسهم وضرب فى أفئدتهم عِرق منه فانقدح له شعاع يطير إلى الفكر لأنه بعض القوة الموجهة إليه من الروح المفكِّر.

إن الجميلات إنما هُنَّ كواكب الأرض يدرن فى أفلاك القلوب ؛ ولست ترى فلكياً يرصدُ نجوم السماء إلا ولعينيه منظار تكبر فيه الأشياء [1] أضعافاً إلى أضعافها فيدنو بالبعيد ويجهر بالخفى . وعاشق الجميلة حين يهيم بها ويرصد منها نجم خياله فى فلك أمانيه لا يلبث أن يرى الجمال قد جسَّم فيه الحِس وبسط له ضوء الفكر، فإذا عينه فى تكبير نجمة الأرض كذلك المنظار بعينه فى تكبير نجمة السماء ، وإذا ملءُ العين حبيبها.

فيا كبدى مما ألاقى من الهوى ....

******

(١) اصطلحوا على تسميته بالمرقب وهو التلسكوب.

الرسالة الثانية عشرة

وهنا مَغاصُ الدُرَّة فى لُجَج الحب فألْقِ على نفسك قبل أن تقرأ هذه الرسالة معنى من رقة قلبى حتى تُواثقنى على أنها لا تخرج من نفسى إلا كما أريد أن تتلقاها فلا أتبسَّطُ ولا أتسرَّحُ بكلامى هذا إلا فى مكان من نفسك.

فى موضع من شاطئ النيل نَدِىٌّ [(١)] فلان اليونانى وهو رجل فى رقة المرأة ينهض فى خدمة المحبين بفن من الذوق امتزج فيه ما تقتحمه جرأةُ العاشق بما يختلج إليه حياء المعشوق ؛ فترى من رقعة نديه طرازاً أخضر مُفوَّفاً [(٢)] على ثوب الماء وفيه حَبْكٌ بديع على أغصان الشجر يلوح طرائق طرائق وحُبكاً حُبكاً [(٣)] كهذا الانكماش الذى تراه طرازاً لأثواب الغانيات. وتجد فى أطراف الندى أشجاراً متعانقة كلٌّ لَفيف منها يبنى بيتا أخضر ستائره من الأغصان المتدلية وجدرانه من الفروع المعروشة وكأنما زُخرِفَ وَطُلَى وفُضِّض وذهب بألوان الظل والماء والسماء وما يتسحب فيها.

وترى الناس يستكفون [(٤)] حول هذه البيوت الخضر، ولكنك إذا احتجرت فى عريش منها وكنت منفرداً أشعرك بكل المعانى أنك وحدك فلا تصلح للجلوس فيه؛ وتساقطت عليك ظلاله أرواحاً عنيفة تطردك طرداً ونالتك من كل ظل ثَقلة [(٥)] لا تُحتمل كأنما تناجيك أن هذه الأشجار التى تشبه الضلوع ما غُرست إلا لقلب وكبد .... وأن هذا البيت هو بيت الحب لا يتكنن [(٦)] إلا عاشقين. وهدتنى قدماى يوما إلى ذلك الندى بعد أن ضربت ساعةً فى بياض تلك الأرض وسوادها [(٧)]

---

(١) وضعناها للمكان الذى يسمونه (القهوة) وهى أحسن ما يؤدى معناها وليس أثقل من قول بعضهم (مشروب القهوة)

(٢) منقوش.

(٣) الحبك جمع حباك والمحبوك الثوب الذى فيه هذا.

(٤) يستديرون.

(٥) كثقلة الطعام حين يثقل على المعدة.

(٦) يحتوى .

(٧) عامرها وغامرها.

فملت إليه أُريحُ فيه من الإعياء والحر فإذا هو يهبط على نفسى بمعانيه وإذا أنا من الطرب كبعض شجره أميل وأصْفر وأتغنى . وأدرت عينى فأبصرت فى سَرَارَةِ المكان [1] شجرات يدعوننى فقمت إليهن وما هناك أحد غيرى وغير الطير؛ فإذا غرسٌ قد تسطح وآخر قد تفنن [2] وثالثٌ على ساقه كما تقيم الخيمة وتَسدل عليها حجاباً من هنا وحجاباً من هناك . وإذا رائحة من نفح الحب وبقايا التنهد والتشاكى ما يكذبنى الحسّ فيها أبداً ؛ فاستخفتنى الأشواق وجعلت قلبي المتلهف ينتفض فى علائقه كما ينزو الفارس فى السرج والجواد يُخيبُّ به ويعدو.

ثم تكوُّر النهار على الليل والليل على النهار [3] حتى أتت ساعة موعد لها بعد أن تقدمتها حاشية عريضة من المواعيد المكذوبة والمعاذير الملفقة والكلام الذى لا تحل معانيه فى ألفاظه أبداً . . . لأنه لغة شفتيها .

وكنا نمشى وقد انتفخ النهار [4] وبدأت الهاجرة ترتجل «معانيها الذهبية» فى مدح الظل والماء والنسيم ؛ وقَلِقَ بنا ظهرُ الطريق لأمر ما فقالت وأبصرت الندى: نجوز إلى تلك الواحة .وتحفّى بها المكان حين جاءته كأن أرواح الأشجار تعرفها،فهب النسيم الراكد يجرى ، وجعلت الأشجار يُصفق بعضها لبعض حتى خيل إلىّ أن هذه ملكة الطبيعة دخلت إلى قصرها.

ومشيت إلى تلك العريشة بعينها فلما احتوتنا قلت هذا مجلس السلام [5] في هذا البيت . فقالت: وما باعث هذه الكلمة ؟قلت : إن كل شىء فيك ليتكلم من غير أن يضطرب به صوت ولقد يكون من بعض خواطرى وخواطرك ما أسمع منه فى قلبى صوتاً كصلصلة الدرع حين يقع عليها السيف، وإنك لاتدرين كيف أفهمك؟ قالت: فكيف؟ قلت: إنى أفهمك سعادة أخشى منها وأخافها فإن السعادة إن لم تتحقق لا تضر إلا فى الحب فشر أنواع السعادة فيه تلك التى لا تتحقق .

---

(١) وسطه وسرته.

(٢) تفرع. والمتسطح الممتد على الأرض.

(٣) يمحق أحدهما الآخر.

(٤) قبل الظهر بساعة فذلك انتفاخ النهار .

(٥) هو ما يسمونه قاعة الاستقبال.

قالت : فإذن أنت تخافني ؟ قلت: ولكن ذلك ليس معناه أني أخافك بل معناه أني أرجوك.

قالت وعلى هذا يكون لقولك أني أرجوك معنى آخر ؟

قلت :بل معانٍ عدة منها أني . . .قالت: وماذا أفهم من أني ؟قلت : أليس فيها ياء المتكلم ؟ فقالت : وأى شىء فى ياء المتكلم ؟ فقلت :بربك لاتتعنتى أليس فيها المتكلم نفسه. . . .؟ فضحكت وقالت : ولكن ما معنى أنك ترجونى ؟ قلت : إن النبات لا ينبت إلا حيث يجد عناصر غذائه ،وروحى قد وجدت فى جمالك كل عناصر الحب فنبتت فيها نبتة جديدة أخاف أن لا تتعهديها فتذوى ؛ ومن هذا الخوف أرجوك . .

وقلبي يخشى منك على ما فيه منكِ فإن لكل شخص ظلاً ولكن هواك نقل ظلك إلى قلبى كما تنقله آلة التصوير؛ فإن غضبتِ وتحولت مزّق ظلك هذا القلب ليغضب ويتحول ومن خوفى هذا أرجوك . .

وكل شىء فى عالمَ الموت يموت ويُنسى ، فإذا أنتِ نسيتنى فهذا موتى عندك، وكل من يحب الحياة يخاف الموت ، فمن هذا الخوف . .أرجوك. . . . .

وكلماتى هذه تخاف أن تحمليها مَحْمِلَ الجُرأة عليك فهى كذلك من الخوف ترجوك. . .

قالت :أفليس فى الحب إلا الخوف؟ قلت: فيه الرجاء ولكنه هو الخوف بعينه. وللعرب خرافة جميلة فى سُلَحفاة يسمونها «بِنت طَبَق» فيزعمون أنها تبيض تسعاً وتسعين بيضة كلها سلاحف وكلها بناتُها وكلها من جنسها ؛ ثم تبيض بيضة واحدة تَنْقُفُ عن حية تأكل التسعة والتسعين كلها . . . قالت آه. قلت: وآه. . . فلو كان لى فى حبك تسعة وتسعون رجاءً أى مائة إلا واحداً ، ثم خوف واحد لمحاها كلها . فاسترسلت فى إطراقة جميلة ثم قالت : لقد جئت معى بالنسخة الإنجليزية من ديوان «عَمر الخيَّام» ؛ إن هذا الشاعر ـ ونظرت إلىّ باسمة ـ حبيبٌ إلى قلبى وهو منى كالسعادة إن لم أطمع فىّ نيلها لم أيأس من قربها ولا من الفكر فيها . كل قصيدة من قصائده تُنشئ فى حباً جديداً ففى قلبى له أنواع

كثيرة من الحب لا أدرى ماهى ولا ما الفرق بين نوع منها ونوع منها ولكن كلها حب كلها حب. وهو نجم بعيد عنى غير أنى أراه ساطعاً وأعلم أن في قلبى دماً يحن إليه وفى هذا الدم ينغمس شعاعه الآتى من السماء ؛ هو حيث يكون وحيث يكن فهو فى قلبى .

قلت :وإذن فلا ينبغى (للخيّام) أن يسلِّط الخوف على رجائه...؟ فتلألأ ثغرها ضاحكاً وقالت : « الخيام» إنما هو هذا الكتاب فى هذا الجلد المذهب . قلت: فأنا أستنزل روحه إلينا فإن فىّ هذه القوة فلابد له من أن يجىء.

ثم اطرقتُ وجعلت المح ابتسامها حين أُدَوِّمُ عينىَّ[1] يَمنةً ويسرةً ثم انتبهتُ ورميتها بنظرة ارتاعت لها روعاً ظاهراً وقلت: إن روح الخيام تُجيشُ فىّ منذ الساعة وهو يسألك هل تحبينه؟ قالت: بلى ؛ ولكن على سائلنا أن نسأله فماذا يرى هو فىّ ؟ قلت: إن كل ما احتساه من الخمر فكان لذّته فى الدنيا يراه الآن قد خُلق جسماً جميلاً رائع الجمال ،فهو يسكر منه ولكن سكر أهل الجنة فى الجنة.قالت: أفلم ينس الخمر بعد ؟ قال «الخيام ».... وهل الكتاب الذي فى يدك إلا أسطر من شعاع الكؤوس . قالت : والحبيبة التى يذكرها فيه؟. فقال الخيام: لو كنت مثلك لما ساغ لى أن أذكر معها الكأس ، ولكنى كنت أستجمع بها مناظر الجمال فإن الطبيعة تتزين لعين الشاعر إذا رأت معه امرأة جميلة كأنها تغار . قالت : إذن كان يريد الطبيعة لا الحبيبة .قال الخيام : بل أردتُ أن يكون موضعُ تأملى جميلاً بالجمال وحبيباً بالحب وتوخيت أن تكون فيه كل عناصر الهوى . إن المسجد لا يُبنى فى أى الأمكنة بل يُختار له المكان الذى فيه عنصر الصلاح والمنفعة ؛والمسجد نبات مغروس فى تربة خاصة تجمع عناصر الصلاة والتسبيح والتهليل ، والخيام بنات مغروس كذلك ولكن فى الورود والرياحين والألحاظ وشعاع الخمر .

قالت : وهل يتقبل الخيام منى إذا سألته أبياتاً جديدة ؟

قال الخيام: لقد جئت بى إلى الأرض فإن لم تُسوِّغنى طباع أهل الأرض فى

---

(١) أديرهما وأقلبهما .

الحب والهوى والحنين لا أستطيع شيئاً وإن كان فى وسعى أن أجعل كل شجرة فى هذا المكان تُنشد قصيدة خضراء بلغتها لا بلغتك.

قالت: بل أريد لغتنا فإنى لا أفهم منطق الشجر.

قال الخيام - فهاتى الديوان، ثم جعل يُزَمْزِمُ زمزمةَ العجم[1] وقلب غلاف الديوان وكتب:

صُبَّ كأساً على الثرى فتراه عاد قلباً يطيرُ فيه احتراقُ
يَتلوَّى بها ويهتزُّ منها إنه كان أكبُداً تشتاقُ
وَيحَ من أسكرتْ إذا تُسكرُ الكا سُ ويا ويحهم إذا ما أفاقوا
تَنسجُ النور والشعاع خيوطاً كلُّ خيط للهمِّ منه وثاق
وتُرينى السماء فى سَعَةِ الصد رِ وصدْرى بِشمسها[2] آفاقُ
أحتَسيها كالفجر يُعقبُ ليلاً أو كليلٍ للفجر فيه انبثاق
هاتِها فهى فى فَمى قُبلاتٌ واصطدام الكؤوس منها عِناقُ

وقرات الأبيات وأنا أترجرجُ كأن فى الكرسىّ زلزلةً أو كأن فىَّ روحاً يضطرب ويتقلقل؛ فما انتهيت إلى «القبلات والعناق» حتى انقلب الكرسى بى فاصطدمت بها ولم أقع ولكن.. آه ولكن وقع فمى على خدها.

وجَعَلَنا (الخيام) كأسين فى يديه فقرع كأساً بكأس ليسمع منهما فى صوت القُبلة رنَّةً مُسكِرة..

***

(١) صوت همهمتهم وهم يزمزمون عند الشعر وغيره.
(٢) تشبه الخمر بالشمس.

الرسالة الثالثة عشرة

تلك ساعة لا تَطلُع علىّ ذكراها إلا طلوعَ الفجر فى نور وألوان ونسيم وندى؛ فإذا أطرقت فيها وتمثلتها رأيت ذلك الفجر يمتد ويضطرم وإذا الشمس قد بزغت منه تطوِّح بشعاعها من بعيد تحية للأرض وأهلها؛ ثم أُمعن فيها فترتفع وينساح[1] ضوؤها وإذا بتلك الفاتنة قد طلعت لى من الشمس؛ وإذا نحن على تلك الطريق، وإذا المكانُ والزمانُ والسحر والجمال؛ وإذا نور وجهها قد نبع فيه الضوء الأحمر من لون الحياء؛ وإذا هى واقفة وعلى خدها القبلة الأولى لمست روحى روحها؛ ذلك هو معنى القبلة. ولكنها وقفت ذابلة يُعرَفُ فيها الحزن، وكان فى صدرها التنهد وكان فى لحظها معناه؛ أما لون التنهد فبقى على خدها.

يا لله ما كانت إلا تمثالاً يرينى منها صورة الاطمئنان الخائف، وما كنت بإزائها إلا تمثالاً آخر يريها منى صورة البراءة المتَّهمة. وكنت أقول لها منذ هنيهة: إن الحب هو الخوف؛ فعلمت أن من الخوف أشياء لا شيئاً واحداً كلها من نكد الحب: الخوف نفسه ثم رجاء ذهابه ثم خشية قدومه ثم خوفٌ ليس فيك ولكنه فى النفس التى تحبها؛ والإنسان حين يرجو الأقدار يشعر بها بعيدة عنه ولكنه حين يخافها يراها قد خالطته وكأنما تعتلج فى جنبيه وتَعْرُكُهُ بكل أثقالها. ليس ما يُخيفنا هو ما نخشاه فى الحقيقة. إنما هو قوة خفية فى الغيب تعترى القلب فتتناول منفذ الحياة منه فترسل فيه ما ترسل من الآلام الحكيمة كما ترى اللافظة[2] من أنثى الطير حين تزُقُّ فرخها وعنقه المرن الغضُّ ينتفض فى منقارها؛ وهو يكاد يختنق من طريقة إطعامه الحياه؛ وكذلك نتناول من السماء حكمة الألم.

ولما تصرَّمت تلك الوهلة[3] التى اعترتها مزّقتُ بشفتى ذلك الصمت الذى كان يغرز أنفاسى في قلبى كأن فى كل نَفَس إبرةً نافذة وأردت الكلام فجعلتُ أُجمجم فى عذرى[4] وأرسل ما يحضرنى من نفس الشفتين المتهمتين بالذنب. وهى

(١) ينبسط شعاعها.

(٢ قلت: اللافظة: الديك يأخذ الحبة بمنقاره فلا يأكلها وإنما يلقيها إلى الدجاجة والتى تزق فرخها من الطير لأنها تخرج من جوفها لفرخها كما فى القاموس.

(٣) انكشفت الحيرة.

(٤) أعتذر من غير تصريح.

غافلة أو متغافلة لاتأذن لكلامى أن يمر بها. ثم نظرت فإذا فى أجفانها دمعة تترقرق وتهم أن تنحدر . وكأنما لم أكن عرفت ظرفها ومزاحها وميلها إلى النادرة وأنه لا يسرى الهم شىء عندها كالكلمة الشاعرة وأن الجبل من جبال غيظها وغضبها تنسفه جملة مُفَرقِعة من الضحك، وأسعدنى طبعى الجرىء. الذى أنكرته من يومئذ فلمع لعينى معنى جميل فى دمعتها فأمسكت يدها وقلت : إن عذرى إليك فى اضطراب الكرسى بى وماتعمدتُ نِيّةً وهذه يدى لك بأن حكمك فىّ نافذ إذا لم تنشر الصحف اليوم أو غداً:

«حدثت زلزلة خفيفة لم تُلحق ضرراً بأحد ...» فتدافعت تتبسم وغمر وجهها معنى رقيقُ كالنور الذى يسطع من خلال سحابة كانت مجتمعةً ثم تسايرت تجر سوادها . واستتبعتُ فقلت: ذلك عهدى وأنا مرتهن بكلامى مأخوذ بأقوالى فهذا توقيعى عليها وأسرعت فقبلتُ يدها الجميلة . وحلت هذه الجرأة عقدة صمتها فقالت: والعذر ذنب آخر؟ قلت : فإذا كان ذنباً فإن منه عذراً ثانياً...... ولكنها أسرعت فاختلجت يدها وما تتماسك ضحكاً.

القبلة الأولى هى تلك النظرات الطويلة الحائرة فى أعين المحبين وقد ضاقت بالصمت والإبهام وكثرة ما تتردد بين معنى يسأل ومعنى يجيب؛ فانحدرت إلى الشفاه لتخلق حركةً وتتمثل صوتاً وتستعلن للحب بكل معانيها. فالعواطف المشبوبة والنظرات المتكلمة والابتسامات المترجمة تأخذ كلها فى تأليف تاريخ الحب زمنا يقصر أو يطول، وحتى بدأت فى تدوين هذا التاريخ كانت الكلمة الأولى هى القبلة الأولى.

واللغات تعجز أحياناً بما نحملها فلا تُحسن التعبير إذا كانت العاطفة قوية مُهتاجة وقد نشبت فى عاطفة أخرى مثلها . فإذا ضاقت الروح بهذا العى عمدت إلى لغتها الأولى فأرسلت العاطفة لوناً فى الوجه إذا كانت حياءً أو خوفاً؛ ورعدةً فى الجسم إذا كانت فزعاً أو محقاً؛ ودمعاً فى العين إن كانت حزناً أو قهراً؛ وضحكاً وابتساماً إن كانت إعجاباً وطرباً . فإذا كانت العاطفة وجداً ولوعةً وقد استفاضت بين روحين ؛ دنت إحداهما من الأخرى فمستها بشفتيها فيكون هذا اللمس بأداة النطق هو أبلغ النطق.

إنما تحية الفكر ردُّ كلمة بكلمة ؛ وتحية النفس هزُّ يد بيد؛ وتحية القلب لمسُ شَفَة بشفة .

كم أسأل الدُّرَّ عن معناكِ باسمةً   والوردَ عن لفظة قد أطبَقَت فاكِ
لا الدرُّ يَدرى ولا فى الورد لى خَبَرٌ   أرويه عن شفتيكَ أو ثناياك
يا نَجمة أنا فى أفلاكها قَمَرٌ   من جَذْبها لى قد أضللتُ أفلاكى
النارُ بالنار لا تُطْفَا إذا اتصلتْ   فكيف أصنعُ فى قلبى لينساك؟

آه أيها العزيز إن صدرى لينشقُّ لهذه الأبيات وإن لها لغَمْزاً على فؤادى لا يسكن وإنى لأرتَمِضُ(١) بها كأن فى كل بيت منها نوعاً من أنواع الحُمَّى. هى ألحاظها أول اللقاء بينى وبينها ساعة كانت تنزع ألفاظها من قلبى فألتوى عليه لأنتزعه من ألفاظها؛ وكنت ساهياً عن القدَر وعين القدر ذاكية علىّ فى تلك الساعة ولا أدرى.

لقيتها وما أريد الهوى ولا تعمَّده قلبى ولا أحسب أن فيها أموراً ستؤُولُ مآلها(٢) وكنت أظن أن المستحيل قسمان: ما يستحيل وقوعهُ فلا تُفضى إليه، وما يمكن وقوعه فتهمله فلا يُفضى إليك. ولكن حين توجد المعجزة تبطل الحيلة ومتى استَطْردكَ(٣) القدَر الذى لا مفر منه أقبل بك على ما كنت منه تفرُّ.

إن لهذا العقل جَمَحات ترده أحياناً إلى طبيعتها الأولى من الطفولة التى غشيتها الأيام والليالى والأفكار والحواس فيرجع الرجل طفلا صغيراً لا يدري كيف يميز؛ ولقد يكون ومايُشبه رأيه رأى ولا يتعلق بصوابه صواب وأن عقله لكالنجم من أى أقطاره اقْتَحَمتْه عيناك رأيته ناراً وشعاعاً. غير أنه متى بلغ تلك السورة فجمع عقله أسرعت منه الفَيْأة(٤) إلى حالته الأولى فانتبهت الطفولة فيه فعاد كالطفل. فإذا فجأة الحبُّ فى عين امرأة رأيته لا يبالى إلا ما عرف فى عهده الأول من تحنى المرأة عليه وانعطافها له؛ ورجع إلى «عصره النسائى» فترى الدنيا بما وَسِعَت

---

(١) قلت: يقال: ارتمضت: وثبت أو اشتدت عليه وأقلقته كما فى القاموس.
(٢) أى تنتج نتائجها.   (٣) ساقك أمامه.
(٤) الفيأة: الرجوع.

لا تعدل فى عينه الصدر الجميل الذى يترامى عليه ، وتموت المطامع فيه وترجع كلها إلى محصول واحد من ذلك الفم الذى يحبه ، وتعود لغة الحياة عنده كلغتها الأولى فى إشارة أو كلمة أو ابتسامة أو قبلة.

إن الطفولة تَكبر فينا ولا ندرى ؛ ودع الناس يسمون حماقة الإنسان بما شاؤوا فهى هى انتباه الطفولة فيه ومُحاجَزَتُها فى ساعة من الساعات التى يَجْمَعُ فيها العقل بين ذات نفسه وبين صفات نفسه.

لا يريد الهم منك أكثر من أن تريده فيأتى ؛ وحتى لو زَوَيْتَ جلدةَ وجهك[1] حكاية وتمثيلاً لطلع مما بين عينيك فهو مقيم فى أعصاب كل إنسان؛ لا يبرح الإنسان يؤدى إليه شيئاً ويحمل منه شيئاً يؤديه، بل هو نصف مكروبات الدم الإنسانى.... ولذلك قالوا: إن القلب المبتهج يقتل من المكروبات أكثر مما يقتل أقوى المطهرات. وهمُّ الحب هم على حدَة لأنه لا يكون فيك بل يتصل بك من أعصاب أخرى ودم آخر. وما أحسب أن ألحاظ المرأة الجميلة يكون فيها ذلك الفتور وذلك التكسر إلا بما تحمل من الأشعة المسمومة؛ تلك الأشعة التى متى وقعت فى الدم الذى يقبلها ويتأثر لها طبعت فى كل ذرة منه صورة من صور تلك المرأة.

هذا همُّ الحب ولكن مجيئه همٌّ آخر لأنه يتهكم بالناس فلا يأتيهم بكُنْهه وحقيقته إلا فى أسلوب الحظ والسعادة ثم لا يأتى إلا اتفاقا ومصادفة فى ساعة ترتجف كأنها وقعت إلى هذا الزمن خطأ، أو كأنها تحس بما فيها من الجَوْر والقتل، أو كأنها خُلقت مرتجفة متزلزلة ليتأتى لها أن تزحزح الطبيعة الإنسانية وتطيش بها حتى فى جبابرة العقول الذين رسخت طباعهم بجبال من الأخلاق الراسية تمنعها أن تميد أو تتزحزح . السرور والحب كلاهما يأتى اتفاقاً ؛ ولعلك لا تجد فى كل ما عرَّفوا به السعادة أصح ولا أوفى من أن تقول إن السعادة هى نفس هذا الاتفاق حين يتفق السرور أو الحب.

والجناح الكبير إنما خلق كبيراً ليأكل الأجنحة الصغيرة . ولما لقيتها كانت ألحاظها تقول لى بفصاحة أوضح من نور الصبح : أنت فريستى ؛ وكانت ترفرف

(١) قبضتها كما يفعل العابس.

عليّ فأتنسم منها هواء يذهلنى كما تذهل العصافير الصغيرة للجارح المنقض عليها. وتحولت أسرع مما أرادت بى وكنت ذا عزيمة قوية مضيئة كالنهار الذى يتغذى من دم الشمس فما أسرع ما فتح هذا القمر باب سمائه وطلع عليّ من سحره بمثل ما يطلع قمر الأرض على الأرض فيبدلها من نهارها ذلك الصبح الرطب المريض الذى تتخايل فيه الظِّلال والنسمات حتى يأذن الله فتُمحَى آية الليل الأسود وتُطوى آية القمر الأبيض.

كنت كذلك البطل الذى أكدى مرة فى قتال خصمه ورجع كما يرجع الجبان فعيَّروه فقال : والله ما كنت جباناً ولكنى زاولتُ أمراً مؤجلاً [1] . وتالله ما كنت ضعيفاً ولكنى دافعتُ قَدَراً مُعجّلاً لا يُدفع.

وحاولت أيها العزيز أن أكتب إليك وأنا فى هذا الموت فصنفتُ كلمات ثم خشيت أن أرتاد أحداً لسرى فحفظته فيها وتركتها بين أوراقى، وكان قلبى يحدثنى أنه يَستَرْوِحُ من هذه الصحيفة رائحة صفحات كثيرة سأكتبها، وقلت إنه حب أبيض لا ينبغى إلا أن يكون منسياً أو سراً مُضْمَراً أو على الأقل شيئاً غير ظاهر . أما الآن فإنى مرسل إليك ما كتبت، ولتجدن هذه الأسطر وما فيها إلا قلب يتمزق ونفسٌ مضعضعة وكأنما هى من بكاء أعصابى المتألمة. وإذا رأيت بلداً سال بها السيلُ أو مدينة جاش بها البحر فاعلم أن لهما ثالثاً فى معنى الخراب وهو العاشق الذى يغمره الدمع وها هى الرسالة:

أكتب إليك وأنا فى حال هى من شدة الوضوح قد صارت فى شدة الغموض وأية حال تظنها؟ سيذهب بك الظن إلى الموت فهو أخفى ما ظهر من أسرار الإنسانية، ولكن هناك موتاً لا ينقل من الدنيا إلى الآخرة بل نصف الدنيا إلى نصفها الآخر ..... وهو فى أسرار الإنسانية عكس ذلك لأنه أظهر ما خَفِى، وهو الحب.

علامة هذا الموت الصغير أن يقع كل شىء منك فى موقعه حتى لو جاءك اليقين لا نقلب شكاً ولو لمست الحقيقة لاستحالت شبهة ثم تجد فى أسباب الحياة

---

(١) أكدى ؛ أى أخفق ، ويريد البطل أنه لا حيلة له فى أن يفرغ من عمر لم تفرغ مدته.

ما يجد المريض فى أصناف الطعام لأنه العلة المستقرة فيه تجعل فى كل شىء له علة منها .

وترى كل ما أنت ناظره يوسوس فى نفسك بلغة ما ولمعنى ما حتى لا يترامى أمرك إلا إلى الوساوس والأباطيل كأن جماعة من الشياطين ارتجّتْ فى صدرك فلا يهدأ أبداً . وتحسب الأرض قد نَبَتْ بك وثَقُلَت عليها كأنها لا تستطيع أن تحملك أنت واعتقادك الجديد . . . وما اعتقادك هذا إلا أنك ترى الناس جميعاً قد تغيروا فلا تصيب بينهم موضعاً تكون نفسك فيه هى نفسك إلا ذلك الموضع الذى يضم من تهواها ،أما سائر الأمكنة وأما سائر الناس فأنت منهم فى رأى نفسك كالمُصْحفَ فى بيت الزِّنديق الملحد، يظلم فى كل شىء : فى الوضع وفى الاستعمال وفى الاعتقاد وحتى فى النظر إليه . . . وتستحيل فيهم بشخصك الواحد إلى اثنين معهما خيال شخص ثالث . . . فلا ترى إلا أن نصفك يتحزنُ للنصف الآخر فى كل ما تراه . وهذا النصف الآخر يكون فى بلائه كالطير الذى وقع من الجو بسهم فلما أحس الأرض جعل يهم ويدارك الضرب بجناحيه ويكد ويعنف على نفسه ولكنه لا يطير ، وكلما أراد أن يثب إلى السماء وجد آلتها فيه مختلة ترتجف وتضطرب ولكنها لا تعلو ، وقصر جناحه فلصق بالأرض **﴿وجاءه الموتُ من كل مكان وما هو بميت﴾**[1] .

تُبغضُ العيش وتبغض الحياة وتبغض الناس ،تبغض ثلاث مرات لأنك أحببت مرة واحدة ، وهذا كله إذا كانت من تحبها لا تدرى بهواك أو كانت تدرى ولكنها لا تستطيع أو كانت تستطيع ولكن . . . آه يا عزيزى لابد فى لغة الحب من «لكن» إذا كانت المرأة تعرف لغة الحب.

يا وَيلتا لقد انتبهتُ إلى أنى أخاطبك كأنك أنت المبتلى. . . فلعلك عاذرى فإن طبيعة النفس الحزينة تريد أن تكون مصائبها فى سواها ولو على ورقة . . . لم يبق منى إلا جزء قليل من شخصيتى القديمة أما أكثرها فضاع ضياعه أو أصبحت لا أملكه . ولكن هذا الجزء الباقى يُفسح لى مذاهب النفس فأرنى كأنما أستقبل السموات وأحويها فى صدرى ، وأرى بعينى مجموعى الإنسانى كله واضحاً

(١) سورة إبراهيم : ١٧ .

يتسامى، وأشعر أنى عقل من هذه العقول التى تشرف على الدنيا وتعمل فى نظامها.

ولا أثْقَلَ على نفسى من الناس ، فإن ظلالهم تهبط على قلبي المتألم بأشباح ممسوخة وأراهم على وتيرة واحدة فى ثقل الروح وسواد الظل ؛ ولا ذنب لهم غير أن وليا من أصفياء الله خرج يتوضأ يوماً وقد أقبل الناس على وضوئهم فكشف الله عنه حجاب الحيوانية فنظر فإذا لكل رجل وجه ولكل وجه سَحنَة[1] حيوان ولكل حيوان معنى وإذا شهواتُ أنفسهم قد مسختهم مسخاً وفاءَتْ ظِلالُها على وجوههم بجلود الحمير والبغال والقردة والخنازير وما دبّ ودَرَج.... فاللهمّ غَوَاثك[2] لأهل النفوس .

وهذا الحب حاسة في الروح ولا ريب يستثقل كل ما يُنافِرهُ من الطبائع، طبائع هؤلاء الذين يترفقون للعيش[3] بأيديهم وأرجلهم وأبدانهم وقلوبهم وأنفسهم فيثيرون فى كل سبيل غبار الحيوانية على كل قلب روحانى فلا يكونون عليه إلا ألماً ومضضاً وشدّة من الشدة ، وكثيراً ما يخيل إلى فيمن حولى ممن اخالطهم اضطراراً أنهم ثعالب أطلع عليهم برائحة الأسد الضارى .

إن عواطفى تغلى وتستفز فى مثل المرجل من إرادتى العنيفة المصبوبة من فولاذ الكبرياء،ولست أخشى فى هذا الحب إلا انفجار هذه الإرادة التى هى وعاء النفس، فإنها إن تنفجر ذهبتْ قِطَعاً مُبعثرة على كَسر منها كسر منى . فهل تنفجر يوماً؟..

ما أشد هذه الأيام الحادَّة. إنها كَسُلَّم نُصبتْ لى درجاتها من سيوف مسنونة ؛ فى كل يوم جرح ينفجر بالدم ولكل يوم عذاب وتقطيع فى الجرح نفسه؛لا راحة فى الصعود ولا فى الوقوف ولا فى النزول،وكل يوم يقول لى حبها: تَعلَّقْ بيديك الممزَّعتين على حد هذا السيف وضع قدميك الممزقتين على حد ذاك السيف؛ واصعد.

***

(١) قلت: السحنة: لين البشرة والهيئة واللون كما فى القاموس .

(٢) أى أغث. (٣) يعملون للعيش والكسب.

الرسالة الخامسة عشرة

إن كل ماسطرتُ فى هذه الرسالة قد انعقد هَمه وسواده فكان عَجاجةً ثائرة من حرب الهوى ؛ ليس تحتها فى حومة القلب إلا ألم كضربة السيف أو طعنة رمح أو كية برصاصة ملتهبة حمراء. احتلتُ نفسى [1] عما كانت فيه من الغيظ والموجدة ودافعتها وغالبتها حتى وقفت بها على صراط النسيان ولكنى فى ذلك إنما كنت كناقش الشوكة بالشوكة [2] يعالج وخزة واحدة بوخزات كثيرة ويكشف عن حُمَةَ العقرب النباتية بحمة مثلها ، وما زلت أنكت بسنّ هذا القلم فى صميم هذا القلب حتى فاض فى صفحات هذا الكتاب.

قبضة من الأوراق جعلت بينى وبين تلك الحبيبة ماتجعل قبضة من التراب بين الحى والميت . إذ تنثر يد الموت من ذراتها عوالم أبدية بينك وبين من تحب أو كنت تحب . . .

حسوت كأس الحب فدارت فى دمى وانحدرت إلى قلبى وصعدت إلى رأسى وهذه الرسائل هى الحقيقة التى كانت فى خمرها قَطَرَتْ من القلم كلاماً ومعانى. ومنذ اليوم سأضع العقل بينى وبين تلك الكأس فلا أراها إلا جنوناً ملوناً ومرضاً مُزَخرَفاً ثم لا أراها إلا حلماً خمرياً زاهياً إن حسن بالنائم أن يستغرق فيه لايحسن بالمتيقظ أن يلم به ثم لا أعرفها إلا شيئا يجب اطراحه إن لم تَدَعْهُ لأنه إثم فلتدعه لأنه ذَمّ.

اضطرمت النار فأكل بعضها بعضاً وهذه الرسائل هى صوت الماء الذى صُب عليها ليطفئها فزفرت به الزفرة الأخيرة ؛ ومات الهوى لما أُصيب مقاتله.

تلك مسألة امتحنتنى الحياة بها فما كان أجهلنى إذ ركبت فيها الشبهة أُصرفها بعنان الحيرة فمضت تتخبط بى . إن إعجابى المجنون أخرج لى من الحقيقة الصغيرة على الأرض خيالا فى قدر السماء يتلألأ فى عين الشمس على أجنحة الملائكة . وكذلك الجهل فى الإنسان يُخرج له من كل مسألة سهلة الحل مسألة لا تحل أبدا فلا يبرح الفكر يضرب فيها مقبلاً ومدبراً ولا ينفذ إليها إلا من الجهات المستحيلة التى لايخرج الصواب لا من واحدة منها ولامنها كلها.

---

(١) أى حولتها .

(٢) يقولها العامة ناكش الشوكة.

والخطأ ههنا من لا شيء وليكن اسمه بعد ذلك ما يسمى . . . سمِّهِ مسألة فارغة أو مشكلة دقيقة أو رذيلة جميلة أو حباً أو امرأةً. . أو ما شئت ؛ هو على كل ذلك خطأ من لا شيء.

إنّ مسَّ استقلال دولة من الدول العظمى قد يكون أحياناً أيسر وأهون من مسّ استقلال نفس من النفوس الكبيرة.

وفى الدم الكريم قانونٌ أزلى يرثه المرء من سلسلة طويلة من أجداد كرام ؛ فإذا أنتهك هذا القانون الإلهى وخاضت فى ذلك الدم مهانةٌ أو مخزاة، انتفض أولئك الأموات العظماء فيه واضطربوا كأمواج البحر فى البحر ، وتحولت قطرات الدم العريق إلى لمح باصر [1]

كأن كل قطرة منه تفور على حد السيف مجرد من غمده ؛ وامتلأت عروق الحى أصواتاً داويةَ كصلصلة السلاح فى المعركة ؛

وترى ذلك الدم الكريم يَتَرقرَقُ ثم يتعقد ثم يلتف على الجُرثومة الّتى دنسته فينفجر بها انفجار البركان لا يَدَعُ الصخر صخرا ولا الحديد حديداً ولا التراب تراباً بل يُذيبها كلها فى حميم [2] واحد يجمعُ صورها النافعة المختلفة فى صورة بغيضةٍ مهلكة تدمر كل شىء.

كذلك حُكمُ قانون الدم ؛ وكذلك حكَم هذا القانون فقضى فى دمى ودمها.

أيها الجميل الذى يحسب كل شىء مَوْطئ قدميه. إن ذَلَّ لك الحى بدموعه لم يذل لك الأموات العظماء الذين استودعوا لآلئَ كبريائهم الكريمة فى الأصداف من عظامه تحت الأمواج الجيَّاشة من دمه، الحرّ ، ومن لم تُعزُّه نفسه فلا يَصلُحُ إلا أن يكونَ رجلاً لا يصلُح. . . .

والآن سأدع صمتى يتمم كلامى .وإنه لصمتٌ الأعماق قاتم الأعماق أسودُ النواحى لأنه مملوءٌ بفكرة التوبيخ؛مظلمٌ شديد الحَلَك[3] لأن شَمس الحب لا تَسطعُ فيه؛ مُبهمٌ مُستغلِق لأنه صورة الظن السَّيئ مُوحِشٌ مقفرٌ لأنه رسمُ قلبٍ حزين.

١٧ فبراير سنة ١٩٤٢

***

(١) النظر بتحديق كما يفعل العدو المبغض.
(٢) أصله الماء الحار.
(٣) قلت: الحلك : شدة السواد كما فى القاموس .

خاتمة الكتاب

اجتمعتْ فى هذه الرسائل عواطفُ الحب تتساوَق[1] معانيها دون حوادثها على نَسَق الشعر والفكرة لا على سرد التاريخ والرواية، إذ لم يكن الغرضُ منها حكاية نفسين بل صفة نفس صريحة لنفس معقَّدة . . . . فلما ضممتُ أُلفَتها وهيأتها للطبع أدرتُ الرأى فيما أرضاه منها ومالا أرضاه وما زلتُ بها على مايختلط فيها من الحب والبغض حتى خرجتْ كما يخرج الماء الصافى من الماء الكدر وجاءت كما ترى نقيةً بيضاء ليلها كنهارها.

إن ساعةً من ساعات هذا الضعف الإنسانى الذى نسميه (الحب) تُنشئ للقلب تاريخاً طويلاً من العذاب إن لم تكن آلامه هى لذاته بعينها ففى أسباب لذاته ؛ ومن ثَمَّ يشتبه الأمر على المحبين إذا استفزتهم فَوْرَةُ الغضب ممن أحبوا، فلا تجد فى البغضاء عندهم أبغض من طريقة إظهارها حتى إن نيران قلوبهم لَتَخْلَقُ منها الشياطين؛ ولقد كان فى هذه الرسائل كلام يدوي كهزيز[2] السحابة الحمراء تنطلق من الرصاص فى معركة حامية لتُمطر مطر الموت والألم والوجع، فلم أُثبِتْ منه إلا كما ترى من ضَبابة البخار فوقَ المِرْجَل الذى يغلى، ومن ألوان البرق تَلمحُ من صواعقها لمحاً.

ألا كم فى هذا الحب من العجائب المتناقضة حتى إن فضيلة الصبر فى العاشق هى نفسها رذيلةُ الغضب فيه،كلما طال صبره طال غضبه، وتراه يُبغض بأقوى ما فى نفسه فلا يكون ذلك إلا إخفاءً لأضعف ما فى قلبه، وإذا ترامى فى أطراف الأرض لينأى عن حبيبه رأيته من أى عَطفَيه[3] التفَتَ لايجد إلا خيال حبيبه، ومهما تَطَرَّحَ قلبه فى مطارح السلوان فلن يكون إلا كعقرب الساعة تعمل كل قواها فى إبعاده عن «الثانية عشرةَ» ليرجع دائماً بنفس هذه القوى إلى الثانية عشرةَ نفسها.

والعاشق هو وحده المخلوق الغريب الذى ترى الأحلام فى عينيه وهو يقظان يَعقلُ ويعى. فليست الحبيبة فى عينه امرأة كغيرها من الناس، وإنما تُخرجها له جملةٌ من الصفات الغريبة التى فيها لتقابل جملة أخرى من الصفات الغريبة التى

---

(١) قلت: تتساوق : تتتابع كما فى القاموس .
(٢) الهزيز : صوت الريح تصفر به.
(٣) من أى جانبيه التفت.

فيه؛ ومتى كان الأمر غريباً نادراً من طرَفيه فى النظر والاعتقاد لم يبق فيه موضع يمكن الحكم عليه بأنه من الأشياء المألوفة التى جرت بها العادة... وتلك هى معضلة الحب التى جعلت من بعض النساء الضعيفات هَزْلاً أروع من الجدّ ومن بعض الرجال الأقوياء جداً أسخف من الهزل؛ معضلة لا تحل أبداً مادامت بين الحبيب ومحبه إذا لا تجيء ولا تكون ولا تستمرُّ إلا كما تجيء وتكون وتستمر؛ وإنما مَثلها كذلك الانعكاس الذى لا يستوى له بحال من الأحوال أن يُظهر الكتابة على المرآة إلا مقلوبة أبداً.

كل معنى إنسانى فى الحبيب يكون دائماً وراءه معنى غيرُ إنسانى فى وهم المحب؛ فالمعشوق مجتمع من إنسانيتين متباينتين وهذا هو كل السر فى انفراده عند من يهواه ما دام يهواه.

وأظهرنى صديقى على رسم صاحبته التى يصفها فى هذه الرسائل أوصافاً كثغور الحسان لا تَفْترُّ إلا عن لؤلؤ ؛ فما رأيتها فى الجمال خارجةً من الجنة ولا سابحة مع الملائكة، إن هى إلا واحدةٌ من خمسين من كل مئة فى النساء [1] ولكنى أشهدُ أن عينيها كأنهما غير إنسانيتين، لو كانتا فى أسد ضار لارتمى عليه العاشق من تلقاء نفسه ليفترسه فيهما بيِّنةٌ صريحة على أن هذه المرأة الشاذّةَ إن أحبت لم يعرف أحد غيرها كيف تظهر حبها؛ فربما آنَسْتَ منها النَّفرة أو الإعراضَ أو البغض ملالةً فما فوقها ومع ذلك يكون هذا هو حبُّها الذى ابتُلِيَتْ بكتمانه أكثر مما ابتليتْ به.

وإذا كانت القدرة الأزلية تصطفى من نوابع العقل والشعور من تكاشِفهم ببعض أسرار التعبير فى ملكوت السموات والأرض؛ جاعلةً وسيلتها إلى ذلك مَلَكاً أو شيطاناً أو امرأة كأحدهما .... فتلك التى رأيتها امرأة كأحدهما ولكن لا تَدَعُك أسرار عينيها تعرف أيُّهما هى؟....

ليس ببعيد أن تكون هذه القلوبُ الإنسانيةُ ينظر بعضها فى بعض أحياناً على شعاع الروح كما يتراءى الوجهُ للوجه فى سِراج العين، ومن ثَمَّ يكون اختلافُ كل

(١) الخمسون نصف المئة ... واعتذر إلى صديقى.

عاشق مع الناس أجمعين فى تقدير الجمال الذى يعشقهُ واعتباره إذ لا يُقدِّر بعينه ولا بعقله ولكن بقلبه . ولقد حاورت الصديق يوماً فى جمال صاحبته تلك فقال: إنى أرى ما لا ترى فإن قلبى ينظر فى قلبها كما تنظر أنت فى وجهها؛ ومتى جادلتَ محباً فى هواه صارت الحبيبة فى جدالكما كالفلسفة تراها عند أهلها إيضاحاً لشىء معقَّد فإذا تناولها غير أهلها انقلبت تعقيداً لشىء واضح . . .

وإن المرأة الجميلة فى رأيى هى تلك التى أرفع روحى إليها إذ لستُ أفهمُ من معنى الحب إلا أن الروح اهتدت إلى شىء من سرٍّ الإنسانية فى إنسان جميل قد استطاع بجماله أن يهديها إلى هذا السر.

ولما يَبسَ ما بينه وبينها ولجَّ فى غضبه منها سألته رأيه فى « إيضاح المعقد . . »[1] فقال أيها الرجل: إذا مدحت امرأة جميلة فلا تقل ما أجملها بل قل: ما أجمل الشرّ !

*****

آه مِنَ الدُّنيا ومِنْ قَدَرٍ على الدنيا حَكَمْ
البغضُ شىءٌ مؤلمٌ والحبُّ شىءٌ كالألَمْ

تنبيه

هذا الذى أصدرناه من «رسائل الأحزان» إنما هو نصف كتاب الحب، وبقى نصفه الآخر الذى يحتوى رسائله إليها ورسائلها إليه وسنخرجه إن شاء الله كتاب على حدة إن أذنت هى فى نشر رسائلها، فإن لم تأذن طويناه وبقى النهار مشرقا فى نصف الأرض والليل مظلما على نصفها الثانى . . . . .

(١) أى حبيبته التى شبهها بالفلسفة .

الفهرس